

الدكتور محمد رجب البيومي

كتاب اليتيمة ذو تأثير اندلسي

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

أكثر ما عثر عليه في التراث الاندلسي من كتب التراجم والاخبار ، يرجع تاليفه الى عهد ملوك الطوائف وما يليه ، واقله يتقدم هذا العهد لائمة من سابقي الكتاب ، وانت حين تقرأ هذا الكثير ــ مما صدر في العهد الاخير ــ تجده يكاد ان يكون متشابها ، فليست هناك فروق بعيدة بين كاتب وكاتب ، وكأنهم يصدرون جميعا عن مورد غير مختلف ، ولا ننكر ان لكل كاتب ما ينفرد به من السمات التي لا تخفى على البصير المتيقظ ، ولكن الطابع العام مع ذلك واحد ، فجل هذه الكتب تميل الى المبالغة والاسراف ، وتتخذ من التراجم الانسانية معرضا للبديع بسجعه وجناسه ، حتى لتكاد الحقائق الذاتية تختفي في طيات هذه الزركشة الشائعة ، وهي ظاهرة هامة تحتاج الى تعليل وتحليل .

لقد وفدت الى الاندلس من الشرق كتب الاعلام من ائمة التاليف ، وتداول الاندلسيون آثار ابن المقفع ، والجاحظ ، وأبي الفرج الاصفهاني ، وابي حيان التوحيدي ، واضرابهم من ذوي الاسلوب الحي والتفكير الخصب ! ولكن أثر هؤلاء الائمة لم يكد يتضح فيما نشر من الكتب في عهد الطوائف وما يليه ، واتضح أثر كتاب ذائع ، تقبله الاندلسيون بارتياح ذلك الكتاب الذائع هو « يتيمة الدهر » باجزائه الاربعة ، لابي منصور الثعالبي رحمه الله .

وانت حين تبحث عن سر ارتياح القوم لصاحب اليتيمة ، وولوعهم باقتنائه ، تجد لديك ما تقول ! فالنثر العربي ــ لعهد الثعالبي ــ كان قد تطور من الطبع الى الصنعة ، ومال به الخوارزمي والصابي ، وابن العميد ، والصاحب والهمذاني الى ضروب من التكلف . تعمد الى الحلية الظاهرة ، والزينة البارزة ، وتغفل الاستشفاف ، والتبصر ، وتخطيء الاصابة اليقظة للتعليل والتحليل ! وجاء الثعالبي فتأثر بسابقيه الاقربين ، وكان له من نشاته واتجاهه ما حبب هذا اللون الى قلبه ، اذ ان بلاغة اللفظ وحدها في أضيق حدودها المتعارفة كانت هي التي تاخذ بمجامع تفكيره ونظرة الى منحاه في التاليف. توضح هذا الاهتمام، فكتاب فقه اللغة ، وكتاب الكنايات ، وكتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، كلها تشير الى اهتمامه الجزئي بالتراكيب اللفظية ، وقد يكون هذا بدعة العصر أجمعه . الا ان الثعالبي حين نقل هذا الولوع الفني بالصنعة اللفظية من ميدان الرسائل والمقامات الى ميدان التاليف العلمي قد فتح الطريق الى اتجاه جديد في التاليف ، ومهما قيل عن تسويغ هذا الاتجاه ، فليس هو الطريق المفيد .

انتقل كتاب اليتيمة الى الاندلس ، فاحدث دويه ، وأرخ الكتاب يوم صدوره واحتفلوا باستقباله احتفالا لم يتيسر لاكثر الوافد من الاثار ، وتعليل ذلك الاهتمام قريب غير بعيد ، فمناظر الاندلس قد أوجبت تنميق الاثاث ، وتجميل الرياش ، وتحلية القصور والابهاء ، ثم انتقلت الى اختراع الموشحات في دنيا النظم ، ومن الطبيعي ان تنتقل الى استحسان البديع في دنيا النثر ، أضف الى ذلك ان اكثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الاندلس ادباء ، وفقهاء في وقت واحد ، وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية اشد وأكثر ، ولسنا ننكر ان منهم ادباء خلصا ، ترنح أعطافهم روائع الادب الاصيل ، ولكن ماذا يصنع القليل امام الكثير .

جاء كتاب الثعالبي فاحدث دويه ، واخذ اصحاب التراجم يحتذونه مباهين ! واذا قلت : أصحاب التراجم ، فاني أعني التراجم السياسية والادبية معا ، لان اكثر حاكمي الاندلس ، أدباء وشعراء ، بل كانت الوزارة في أكثر سبلها لا يلتمس اصحابها في غير الادباء والشعراء ! لذلك كانت كتب التراجم من سياسية ، وأدبية متشابهة متآخية ، وقد وجد في المشارقة من وصلوا الى الوزارة عن طريق الادب ، ولكنهم بالقياس الى أولئك نفر قليل .

ان ولوع الاندلسيين بالزينة والزخرف كسبب نفسي ترد اليه هذه الظاهرة ، هو الذي أتاح لكتاباليتيمة ان يصبح مثالا يحتذى ، والا فان شيخ مؤرخي الاندلس ، وسيد كتابها « ابن حيان » كان جديرا ان يكون رائد المدرسة التاريخية في اقليمه ، لو وجد من تلاميذه وحفدته من يتذوقون نهجه ، او يحاولون السير على منواله ! ولك ان تعجب حين ترى ابن بسام في الذخيرة ينقل آراء الرجل وأقواله مسهبا مطيلا ، فاذا عاد الى نفسه تداركته عدوى اليتيمة ، ونسي الافق المشرق الذي كان ينقل من اضوائه !! أيكون ابن بسام اعجز من ان يحاكي ابن حيان ! هو كذلك بلا شك ، ولو انه حاكاه في زمنه المتاخر ما وقع حديثه أطيب موقع لدى من يرهفون اسماعهم لصلصلة الحلى ، ورنين الاسجاع!

كان ابن حيان (٣٢٧ ــ ٤٦٩) جزل العبارة ، شديد العارضة ، قوي الاصرة . تلمس في اسلوبه قوة وتدفقا ، وتراه نسجا وحده في براعة التلوين ، وقوة التصوير ، فاذا نظرت الى احكامه شاقك أن تجد بعدا في الغور ، وبراعة في النفاذ ، ودقة في الملاحظة . وهو جاحظي التركيب في تدفقه وانصبابه ، وكثيرا ما ينجو من استطراد الجاحظ الى الموضوعية المركزة المحددة ، وكاتب فحل من هذا الطراز لا يرحب به العامة من القارئين ترحيبهم بالكاتب السهل المتناول القريب الاخذ ! ولعل ذلك مما أضاع مؤلفاته على كثرة اجزائها وجودة منحاها ، اذ لو رزقت سوادا كبيرا من القارئين لتزايد نسخها ، ووصل الينا منها شيء ذو بال ... لاننا لم نر الرجل حقا الا فيما نقله عنه صاحب الذخيرة ــ وما أكثر ما نقل ــ والا في ثلاثة اجزاء من كتاب « المقتبس » فقط ، أما بقية الاجزاء العشرة ، وأما كتاب « المتين » ذو المجلدات الستين !! وأما كتاب « فقهاء قرطبة » ، واما كتاب « المآثر العامرية » ، فوااسفا !

يقول المؤرخ الهولندي « دوزي » عنه : « انه يسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن اسباب الاشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء كما سيفعل من بعده نقادون ، كابن سعيد ، وابن خلدون ، ويمتاز ابن حيان الى ذلك باسلوب ناصع ، لا يهبط الى الركاكة ولا يقع كذلك في التفصح والاسراف في

فقاقع الالفاظ ، ورغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في اسلوبه ، ويبعث في كلامه دائما حماسة وغنى وطابعا غالبا في الجد ، ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخي العرب الا القليلين الذين نستطيع ان نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من نقدمه عليه (١) » .

أجل لن نجد من مؤرخي العرب من نقارنه به الا كاتبا كابن خلدون، اما الذين أكثروا من التراجم الاندلسية من بعده ، فقعدت مواهبهم المتواضعة دون اللحاق به ! وفيهم من جرؤ على انتقاده ، فابن بسام يقول عنه ـ الذخيرة ٢/١ ص ٨٥ ـ .

« ومع ذلك فقد كان سهما لا ينمى رميه ، وبحرا لا ينكش آذيه ، ولو سكب الماء ما نقع ، او تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الاحساب قد رسخت في التخوم وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس انوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من عذر الطبيب عند العود ، فرب شامخ بأنفه ، تان من عطفه ، قد مر عن كتابه بفصل‌جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدوثة باقية في عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

فصاحب الذخيرة يأسى على لذعات ابن حيان ونقداته ، فهو يريد منه ان يذكر المحاسن ، ويغضي عن المساوىء ! وقد نسي ابن بسام شيئا هاما ، هو ان من كان في ألمعية ابن حيان وقوة بصيرته ، وشمول نظرته ، يرى كثيرا من الهنات فيمن يتناول ، ولا بد ان يقول رأيه مستندا الى تجربته الواسعة ، وخبرته الاصيلة بالنفوس ، قد يكون ابن حيان اكثر من النقد وأسرف ، فالصفحات التي اقتبسها ابن بسام تحت عنوان « المختار من قوله » تضرب في النقد الى مدى متطاول كاد ان يكون سبابا ! حتى ليفهم القارىء ان كتابته جميعا من هذا الطراز ، ولكن متابعة ما طبع من الذخيرة ، وما تدوول من اجزاء المقتبس تفهمنا ان ابن حيان ناقد منصف ، يسجل الشر والخير معا ! وهو ما لا يرتضيه ابن بسام ، وقد تعرض الدكتور احمد امين الى الفصل في هذه القضية فقال في ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٧٨ :

« ونحن الى مذهب ابن حيان اقرب . فالمؤرخ عليه ان يتحرى الصدق في المدح والذم والنافع والضار اما اقتصاره على المدح دون الذم (كما يريد ابن بسام) فتقصير في رواية الحق ، وقول لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور في التاريخ ملكا لنفسه ، بل أصبح ملكا لشعبه ، يشرحه المؤرخ الحصيف ، كما يشرح الطبيب المريض . فنحن مع ابن حيان لا ابن بسام . وكثيرا ما ضقت ذرعا بالمؤرخين الذين لا يذكرون الا المحامد ويغضون الطرف عن المفاسد بل قد يخلقون المدائح خلقا وان لم يصح نسبتها اليهم حقا » .

ولو تعمقنا بواعث التاليف لدى ابن حيان وابن بسام ، لوجدنا كلا الرجلين منطقيا مع نفسه ، فابن حيان الف كتابه ليصدر أحكامه كما يراها عقله البصير ، وقد يقول بعض الكاتبين عنه : « انه لم يقصد اذاعة كتبه بين الناس ، بل جعلها مذكرات خاصة لورثته ، كي يستفيدوا منها ، وينتفعوا بعظاتها » ، وانا أستبعد هذا ولا أقبله ، لان المؤلف الذي يكتب اكثر من مائة مجلد في التاريخ لا يقر بينه وبين نفسه أن تظل هذه الاثار الحافلة ملكا لعشرة من القراء او عشرين !! ولكنه يقوم بمجهوده الضخم ، ليسمع الناس ما يريد واذا كان ابن حيان قد اعترف بهذا الضن حين قال في بعض كتبه ـ الذخيرة ٢/١ ص ٨٨ ـ : « وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسي وخباه لولدي ، والضن بفوائده الجمة على من تنكب احمادي به الى ذمي ومنقصتي ، وطويت على ذلك كشحا ، وأمضيته عزما ، الى ان رأيت زفافه الى خطبة سنية أتتني على بعد الدار ، اكرم خاطب ، وأسني ذي همة : الامير المؤثل يحيى بن ذي النون » فليس لنا ان نجعل هذا الاعتراف قضية مسلمة ، لشيء واحد ، لانه يخالف طبيعة الاشياء ! هذا شأن ابن حيان في تاليفه . أما ابن بسام ، فقد ألف الذخيرة لينصف أهل الاندلس ويقف بهم مع المشارقة في مستوى واحد ومؤلف هذه وجهته لا يتسنى له ان يسطر ما يعرف من المآخذ ! والا ما استطاع ان يبلغ بمؤلفه ما يريد !!

لقد أطلنا القول شيئا ما عن ابن حيان ! وهو كاتب يستحق الالتفات دون نزاع ، وقد أنصفه الكاتب المفضال الاستاذ علي أدهم حين ذكر في معرض تبرئته من التحامل انه وان كان ينتصر دائما للخلافة الاموية « فهو أوسع أفقا واكثر امانة ، واشد احتراما للحق من ان يكيل لهم المدح جزافا ويخلع عليهم ابراد الثناء بلا حساب ، وقد عدد في الجزء الثالث من كتابه « المقتبس » مناقب الامير عبد الله ، وابدع في وصفها ، ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، وأضاف الى ذلك ذكر عيوبه ونقائصه ، وأحصى عليه اخطاءه وجرائمه ! ... ولا أعرف مؤرخا من مؤرخي المشارقة يقوم لابن حيان في قوة التصوير ، وبراعة التلوين ، مع الاصالة والطرافة . وهو في قوة تصويره ، وصرامته وصراحته ، واستمساكه بالموازين الاخلاقية يذكرني بالمؤرخ الروماني العظيم تاسيتوس » مجلة الثقافة عدد ٦١٤ .

ان هذا المؤرخ الفذ الذي يقول عنه صادقا الاستاذ علي أدهم أنه لا يعرف مؤرخا من مؤرخي المشارقة يقوم له ! لم يستطع بآثاره ان يقف في وجه كتاب اليتيمة حين تخطى الشرق الى الاندلس فسحر الناس ، وبهر الكتاب ! وقد توالى كتاب التاريخ من بعده أمثال : ابن الفرضي ، والحافظ الحميدي ، وابن بشكوال وابن الابار ، وابن عبد البر بسام ، والفتح بن خاقان ، وابن سعيد ، والحجاري وعبد الواحد المراكشي ، وابن الخطيب ، والمقري ، ومن يلف لفهم من المؤرخين ، فقصروا جميعا عنه ، وما حاذوه ! ولا نستطيع ان نخص كل هؤلاء بالتحليل ! ولكننا نعمد الى اثنين ممن رزقوا الحظوة في الذيوع ، والمعاصرة في الحياة ، لنتخذ منهما دليلا على أثر الثعالبي في كتابة التاريخ الاندلسي ، ثم أثرهما تبعا لذلك في انتقال العدوى البديعية الى من يليهما من الكتاب! وهما : ابن بسام صاحب الذخيرة والفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح ، وما أغفلنا ابن الخطيب عن انتقاص ولكن فضله ذائع واسلوبه مشتهر وهو بعد لاحق بهما على انه تأثر بثلاثتهم جميعا ، اذ قرأ ما خلفوه ! ..

لقد ذكر ابن بسام في مقدمة كتابه انه أتخذ تقسيم الثعالبي منهجا له ، فهو يقسم الذخيرة اربعة اقسام كما قسم الثعالبي اليتيمة أربعة أقسام ، وهذا التقسيم جغرافي كتقسيم صاحبه فلكل اقليم شعراؤه مهما اختلفت منازعهم الادبية ! فقسم لقرطبة وما يليها من وسط الاندلس وقسم لاشبيلية وما جاورها من الغرب ، وقسم لبلنسية وما يليها من الشرق وقسم أخير للوافدين من المشارقة الى الاندلس ! وهكذا سار سير الثعالبي حين جعل اليتيمة اقساما اربعة : قسم لاشعار أهل الشام وما يجاورها ، وقسم لاشعار اهل العراق ، وقسم في محاسن اشعار اهل الجبل والقسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر ، وهذا الاحتذاء السافر يتضمن اعتراف ابن بسام بمنهج استاذه فهو في رأيه كما نقل صاحب الوفيات عنه ج١ ص٥٢١ .

« كان في وقته راعي قلعات العلم ، وجامع اشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين في زمانه وامام المصنفين بحكم اقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت اليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب » هذا الاحتذاء المقصود دفع المعاصرين من باحثينا الافاضل الى موازنات مختلفة بين الرجلين ، فالدكتور طه حسين يقول في مقدمة الذخيرة الجزء الاول ١ ـ ص ب « وهو يصطنع ما اصطنعه الثعالبي من السجع والتانق في تقديم الشعراء والكتاب ، والتعريف بهم ، والثناء عليهم والنقد لهم ، ولكنه بعد هذا كله يخالف الثعالبي في أمر ذي خطر ، فهو ابعد منه نظرا ، وانفذ منه بصيرة وأعمق تفكيرا ، وهو على تكلفه في اللفظ لا يخدع بالرواء الظاهر عما وراءه من جودة المعنى ، او رداءته ومن صواب التفكير او خطئه ولعله ان يكون افقه من الثعالبي بالحياة الادبية في اقليم من الاقاليم ، فهو أدق منه ملاحظة لما يكون من الصلة القوية بين طبيعة الاقليم ، وما

ينتج فيه من ادب بل بين طبيعة الاجناس البشرية وما تنتج من ادب بل بين ما يكون من مجاورة الامم المختلفة وما تنتج من الادب الخ .. » .

والاستاذ علي ادهم يقول في العدد ٦٦٠ من الثقافة « ويبدو لي ان الثعالبي كان على فضله وسعة اطلاعه اكثر خضوعا لاحكام القدماء من ابن بسام ، وانه كثيرا ما يخدعه البهرج ويحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، اما ابن بسام فانه نافذ النظر ، سليم الذوق بارع الناقدة دقيق الملاحظة ، لا يخدعه الطلاء المموه ، ولا تضل تفكيره الالفاظ الضخمة المدوية او الطنطنة العالية » .

ومن يقرأ الذخيرة يعرف ان مؤلفها يعلم كل العلم موقفه من صاحب اليتيمة ، فهو على اعترافه بمتابعته يعلن انه خالفه في أمرين جوهريين : الاول ما افاض فيه ابن بسام حين قال : المجلد الاول ، القسم الاول ص ٢٣ « وقد وعدت في صدر هذا الكتاب بأن أتخلل اشعار الشعراء ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى ان يتعلق بأذيالها ويساير أفياء ظلالها ، من انباء فتن ذلك الزمان البعيد ـ كان ـ طلقها ، المفرق لشمل الامر في هذه الجزيرة نسقها ، ونلمع بنبذ من مشهور وقائعها ونشير بأسماء طوائف زوابعها وتوابعها ، ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر ، جمع الروضة بين الماء والزهر والزمان بين الاصائل والبكر ، فاني رأيت أكثر ما ذكر الثعالبي من ذلك في يتيمته محذوفا من أخبار قائليه ، مبتورا من الاسباب التي وصلت به وقيلت فيه فأمل قارىء كتابه منحاه وأحوجه الى طلب ما أغفله من ذلك في سواء » .

فهو ينعي على الثعالبي اغفال الحوادث والتواريخ ثم ينعي عليه مرة اخرى ذكر الفاحش من الاهاجي والماجن من القول فيقول بالقسم الثاني من المجلد الاول ص ٦٢ .

« والقسم الثاني هو السباب الذي احدثه جرير وطبقته وكان يقول : اذا هجوتم فاضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ، ولا عيرت به قبيلة ، وهو الذي صنا هذا المجموع عنه واعفيناه ان يكون فيه شيء منه ، فان ابا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه ، وبقي عليه اثمه » ونسأل بعد ذلك ، هل تقيد ابن بسام بمنهجه ! أما الذي يعرفه قارىء الذخيرة ـ ما نشر منها ـ فهو انه لم يقدر على الاحاطة بالتواريخ والاخبار جميعها ، ولكنه بذل الجهد المستطاع ، وبقي ما بقي مما يتطلب البحث الجديد ، كما ان قارىء الذخيرة يعرف ان ابن بسام ترخص في ذكر بعض الماجن من القول رغم حملته على الثعالبي بل العجيب أنه قبل هذه الحملة بصحيفتين فقط ص ٦١ يذكر ابياتا قذرة يقول : انها من الكنايات المليحة ...

على ان ابن بسام مع هذا لا يقارن بمعاصره الفتح بن خاقان بحال ، مهما اضطرت معاصرتهما كثيرا من النقاد الى هذه المقارنة وان عظم تأثرهما معا باليتيمة ويكفي ان نلخص السبب في جملة واحدة هي ان ابن بسام جاد والفتح هازل ، فليس الى التقائهما من سبيل ! .

ومن المفيد ان نوضح وجهة نظرنا في ذلك ، فننظر اليهما رجلين واديبين ، لنرى الفتح يندفع في استهتاره الى ما يشين ، ثم يتطاول على الناس بالحق وبالباطل معا ، وهو حين عمد الى التاليف لم يصدر عن رغبة في اجتلاء حقائق الادب والتاريخ ، ولكن اتخذ قلمه وسيلة للتكسب المقيت ! فهو يرسل الى ادباء عصره ومشهوري مصره يحدثهم عن رغبته في تاليف كتاب ادبي يتحدث عنهم ويلتمس ما لديهم من الشعر والنثر ثم ينتظر ما يجيء ، فان كان الرد مصحوبا بالبدر الثمينة والهدايا النفيسة اطلق ارسال المديح الى أبعد الاشواط ، وان تقاعس عنه ذوو الشمم ممن يأنفون ان يكونوا لعبة في يد لاعب او يترفعون ان يشتروا المدح الزائف بمال مقرر مفروض ! فان الفتح يشويهم بسياطه ويستعدي عليهم الحكام والناس ، ويصدر في كل ذلك عن ذوق مريض !

لقد أرسل الى الوزير الفيلسوف النابغة أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة يسأله بعض اشعاره مع ما يطمع فيه من المال ، فما التفت الى دعوته ورأى فيه وصوليا يبتز المال عن طريق بغيض !

ومثل ابن باجه لا يتأتى له ان يقدر سلوك الفتح وأدبه معا فهو في الاول متسول محترف ، مع ما عرف عنه من العربدة واصطحاب السفلة وغشيان الريب ، وهو في الثاني ينمق أسجاعا فارغة لا يراها الفيلسوف تهدف الى جلاء حقيقة مطموسة ، أو تساعد على فهم ظاهرة مستعصية ! فما الذي يجذبه اليه مع هذه القبائح ! لقد عز على الفتح ان يهمل ويغفل فكتب في القلائد فصلا عن الفيلسوف املاه الحقد والضغينة والثأر قال في مقدمته :

« هو رمد عين الدين وكمد نفوس المهتدين اشتهر سخفا ومجونا وترك مفروضا ومسنونا فما يتشرع ، وما يأخذ في غير الاضاليل وما يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ، ولا اظهر مخيلة انابة ، ولا استنجى من حدث ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث ولا اقر بباريه ومصوره ولا فرد يباريه في ميدان تهوره ، الاساءة لديه اجدى من الاحسان ، والبهيمة عنده اهدى من الانسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في اجرام الافلاك وحدود الاقاليم ورفض كتاب الله الحكيم ، واقتصر على الهيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ عند سماع النهي والايعاد ، واستهزأ بقوله تعالى « أن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى ميعاد » .

لو كان الفتح يعتقد ذلك في ابن باجه عن صدق واخلاص لوجد العذر من الناس في تسجيل ما سطر وافق الحق او جافاه ، ولكنه كشف نفسه حين تراجع الوزير عن موقفه منه. كفا لشره فنفحه ببعض المال ، فاطفأ جذوة غضبه ، واندفع الى كتابة جديدة ، ملأها بالثناء الحافل ، ولم يدخر وسعا في تنميق صفحة مضادة للاولى في كتابه مطمح الانفس يقول فيها عنه :

« نور فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الاعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الامصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للافهام فننا وتهدل اذا قدح زند فهمه اورى بشرر للجهل محرق ، وان طما بحر خاطره فهو لكل شيء مفرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للايمان شقيق ، والجد الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد ان يلحقه ، ومذهب يتمنى المشتري ان يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور » .

هذان نصان متعارضان يكشفان عن معدن الرجل ! وهما ايضا يكشفان عن خصائص ادبه ، ولا يشرفانه في مجال الموازنة بينه وبين معاصره ابن بسام اذ ان صاحب الذخيرة قد تجافى عن بعض اخطاء يتيمة الدهر حين حاول تقييد الحوادث وتسجيل التواريخ ما استطاع ! اما الفتح فقد فهم بتأثير اليتيمة من ناحية ، وطبيعة الجو السائد من ناحية ثانية ان الكتابة معارض الفاظ ، ومتاحف أسجاع ، وتطبيقات مدرسية للجناس والطباق والتورية ! اما ان تكشف عن حقيقة ، او توضح فكرة ، فهذا ما لا يبتغيه الفتح او يعتقده ! ومع هذا فقد وجد من الادباء من يقبلون تنميقه ، ويرتضون تلفيقه فلسان الدين ابن الخطيب يقول عنه : « كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه عذب الالفاظ ناصعها ، اصيل المعاني وثيقها لعوبا بأطراف الكلام، معجزا في باب الحلى والصفات » وابن سعيد يقول في المغرب عنه « الدهر من رواة قلائده وحملة فرائده ، طلع من الافق الاشبيلي شمسا طبق الافاق ضياؤها وعم المشرق والمغرب سناها وسناؤها وكان في الادب ارفع الاعلام ، وحسنة الايام .. وهو وابو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة فارسا هذا الاوان ، وكلاهما قس وسحبان ، الا ان ابن بسام اكثر تقييدا ، وعلما مفيدا واطنابا في الاخبار ، وامتاعا في الاسماع والابصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقا وتعشقا بالانفس ! » .

ويزول العجب من هذين القولين حين نعرف ان لسان الدين بن الخطيب وابن سعيد المغربي كليهما من تلامذة الثعالبي وهواة اليتيمة !

وخطتهما في التاليف ترتضي الاكثار من القول والمباهاة بالزركشة اللفظية والزخرفة البديعية ! وتلك داء العصر ومنحاه ، فلا غرو ان هاما بأسلوب الفتح بن خاقان ! ولو رجع بهما الزمن الى هذا العصر لسمعا الدكتور احمد امين يقول عن صاحب القلائد في ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٨٣ ، « واسلوب الذخيرة اقرب الى نفوسنا فهو لا يلتزم السجع كما يفعل ابن خاقان ، واسلوب الفتح هذا اجوف يلعب بالالفاظ والاستعارات لعب البهلوان !!

لقد شغلت منذ اعوام بدراسة الفلسفة الاسلامية بالاندلس ، فطالعت نبذا من آراء ابن باجه وابن طفيل وابن رشد ، وعرفت ان هناك فيلسوفا آخر هو الفضل بن شرف فحاولت ان اقف على سيرته ، وطفقت ابحث عنه في كتب التراجم ، حتى عثرت على قول الفتح : « الناظم الناثر ، الكثير المعالي والمآثر ، الذي لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ، ان نثر رأيت بحرا يزخر ، وان نظم وقلد الاجياد درا تباهى به وتفخر ، وان تكلم في علوم الاوائل بهرج الاذهان والالباب ، وولج منها في كل باب ، وقد كان اول ما نجم بالاندلس وظهر ، وعرف بحوك القريض واشتهر ، تسدد اليه السهام ، وتنقده الخواطر والاوهام فلا يصاب له غرض ، ولا يوجد في جوهر احسانه عرض وهو اليوم بدر هذه الافاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جري في ميدان الطب الى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسهاه ، وتصانيف في الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى « يسر البر » ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح ، وسواها من تصانيف اشتمل عليها الاوان وحواها » هذا كله ما قاله الفتح ، وقد اخذت أضرب كفا بكف بعد قراءته ، وأسأل نفسي : ماذا قدم لي المؤرخ الكبير غير بديع واسجاع وزركشة وابتداع ؟! وكان مما اسعدني ان اجد الاستاذ عبدالرحمن البرقوقي صاحب مجلة البيان رحمه الله يحار مع الفتح حيرتي . وينشر مقالا بالرسالة (١٤٩) سنة ١٩٣٦ يقول فيه بعد ان نقل كلام الفتح « وقد جرى الفتح في هذه الترجمة على شنشنته في سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ولا اسم ابيه ولا منشأه فضلا عن انه أغفل تاريخ مولده ووفاته ، كذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الاديب يصح ان تسمى ترجمة يعول عليها . ١ هـ » .

تأصلت اذن طريقة اليتيمة في المؤلفات الاندلسية ، احتذاها الفتح شبرا بشبر ، ووقع في بعض اخطائها ابن بسام ، ولولا تشيعه بمؤلفات ابن حيان لجعلها هو الاخر مثالا يحتذيه اما الحجاري وابن سعيد والمراكشي وابن الخطيب والمقري ، واما اضرابهم من مؤرخي عصر الطوائف وما يليه فقد اصابهم من تأثيرها الساحر ما لا نزال نرى عقابيله فيما نقرأ لهم من تصانيف !

ولم يقتصر نمط اليتيمة على الافق الاندلسي وحده ، ولكن بريقه الساطع قد جذب اليه مترجمي المشارقة ممن فتنوا به . ونسجوا على منواله ، لقد حاول ابو منصور ان يجعل اليتيمة باجزائها الاربعة ذيلا لكتاب البارع في أخبار الشعراء الذي تقدم به هرون ابن علي بن المنجم المتوفي ٢٨٨ هـ .. ثم جاء من بعد الثعالبي ابو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفي سنة ٤٦٧ هـ والف كتابه دمية القصر وقد جعله ذيلا لليتيمة نهج به نهجه وقلد عبارته واسجاعه ثم جاء ابو المعالي سعد بن علي الوراق الخطيري المتوفي ٥٦٨ هـ. وصنف كتاب « زينة الدهر » جاعلا اياه ذيلا على كتاب الباخرزي دمية القصر ثم ظهر الكاتب الاشهر العماد الاصفهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هـ فاصدر خريدة القصر وجريدة أهل العصر ... وكل هذه الذيول المطولة تنهل من مورد الثعالبي وتنهج نهجه !! وهي بعد مشرقية لا اندلسية ، ثم توالت المؤلفات التاريخية تحمل الطابع البديعي وكان العصر المملوكي في الشرق وعصور الزوال بالاندلس قد استطابت هذا اللون وارتضته عن اجماع لا يخرج عنه الا كاتب عبقري كابن خلدون !!

كان ابو منصور الثعالبي يبذل جهده الحافل في جمع الاشعار البعيدة ، وسؤال من يلقاهم عمن يعرفون من الشعراء ، واذا صادف أديبا مصريا او اندلسيا او فارسيا فرح به واخذ ينقل عنه ما يروي ، وانت تقرأ بعض تراجمه للشعراء ، فتجده لا يكاد يعرف عن الشاعر شيئا الا ما سمع من اشعار ، فيضطر اضطرارا ان يكتب له ترجمة انشائية تنحو منحى المقامات ، وتصلح لكل شاعر ينظم الشعر ، كما تباع الملابس في المحلات التجارية ، ليشتري منها الآباء لابنائهم غيبا يخالونه يتناسب ، وقد يلبس الابن حلته المشتراة فاذا بها ليست مما يصلح له ، ولكنه مضطر الى ارتدائها ، كما اضطر القارىء ان يقبل تراجم الثعالبي للشعراء في اليتيمة وان لم تبرز قسماتهم وشياتهم على اتضاح ، والحق ان صاحب اليتيمة بذل طاقة قوية في حفظ تراث الشعراء من بني عصره ، ولولاه ما استطعنا ان نعرف شيئا عن أكثر من روى لهم من الشعراء لان المغمورين لديه أضعاف اضعاف المشتهرين ! ولكن طريقته في السؤال عن الادباء واستهدائهم بعض اشعارهم قد انتقلت من بعده ، فكان ابن بسام يكتب لادباء زمانه طالبا نماذج قوية من أشعارهم ليضمها الى الذخيرة ، فيفد اليه ما يريد ! وكل مسئول لا محالة يهدي من قوله اطيب ما يستحسن في رأيه ، وهذا حسن اذا جاء الامر من بابه ، ولكنه انقلب تسولا شائنا على يد الفتح بن خاقان بل صار اداة ارهاب وهجو واستفداء ، واذكر ان الطبيب الذائع والفيلسوف الماهر ابا ألعلاء زهر لم يقبل ان يجيبه على شيء ، فكتب الفتح رسالة فاحشة في ثلبه وتقدم بها الى امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، محاولا ان يتهمه بالالحاد والمروق ، كما ان طريقة الثعالبي في الاعتماد على الوافدين غير مأمونة فقد يروي أديب لشاعر ما ليس له عن قصد وعن غير قصد ! .

ولا بد ان تكون هناك نماذج كثيرة في اليتيمة والدمية والخريدة والذخيرة والقلائد والمطمح ليست لاصحابها على وجه التأكيد ، مهما يكن من شيء فنحن في معرض انصاف الثعالبي نقرر انه بذل اقصى ما يستطيع ، وان هيامه بالادب قد دفعه الى تشييد معقل قوي من معاقله حفظ جانبا من تراث القرنين الرابع والخامس معا ؟ اما قصور تراجمه وتراجم من بعده عن ان تقدم التاريخ الحي في أكثر ما دبج ، فيواجهنا بمهمة خطيرة ، اذ ينبغي أن يحرص ناشرو هذه المجلدات من علمائنا المحققين على استيفاء النقص ما أمكن ، فلا بد ـ ان صدق الناشر المحقق في اخراجه ـ ان يضع في هامش كل ترجمة ما يصل أليه جهده الباحث من اخبار صاحبها ذاكرا ما وقف عليه من المراجع والمصادر !

فاذا اتجه أصلاء المحققين من الناشرين هذه الوجهة فلا بد أنهم سيجدون الجيد المفيد ، ولك ان تتصور معي اليتيمة والخريدة واضرابهما وقد عولجت هذا العلاج ، فاكملت ما تيسر من النقص ، واصبحت مرجعا ادبيا وتاريخيا معا ؟ ومن المحقق ان بعض من ترجم لهم في هذه الموسوعات لا نجد من المصادر المعاصرة ما يمدنا عنهم بشيء ، ولكن من المحقق ايضا أن كثيرا من هؤلاء قد كتب عنهم فهم يتطلبون عناية المحقق واهتمامه ، ان كان كفئا لعمله اذ من المقرر ان يضطلع بالنشر بحاثة متمرس ضليع اما الذين يكتفون بالنشر الخاطف فهم وراقون ! .

لقد نشر الاستاذ الجليل احمد يوسف نجاتي رحمه الله تسعة اجزاء من كتاب نفح الطيب عن دار المامون قام بتحقيقها واستيفاء النقص فيما ورد من تراجمه ، فلم تتكاءده عقبة ما في طريقه بل كان اطلاعه الثاقب الشامل ـ وان اسرف احيانا ـ يمده بجميع ما يريد ، ولو صدق محققو التراث الادبي صدق الاستاذ نجاتي لتلافوا النقص ، وقوموا المائل ، ومهدوا الطريق ...

الفيوم ـ دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

(١) الادب الاندلسي للدكتور هيكل ص ٣٩٣ نقلا عن تاريخ الفكر الاندلسي ترجمة مؤنس ٢١١ .

تراث المهاتما غاندي

بقلم محمود العابدي

***

عرفت غاندي منذ اربعين عاما عن طريق قراءة ما كتب عنه والتحدث الى الاشخاص الذين عرفوه عن كثب ، ولما تعرفت على هذا الانسان النحيل بجسمه ، الجبار بروحه ، العملاق بلطفه ، الآسر ببسمته ، تعجبت من أمره وعدت الى كتاب البيروني المعروف باسم « تحقيق ما للهندي من مقولة » اي ما وضعه رجال الهند من درجات في سلم الحضارة .

وقد صح عندي ان الهند التي انجبت من تقدموا البيروني ما زالت تلد عباقرة الرجال والنساء الى يومنا وفي طليعتهم المهاتما غاندي ذلك الروح العظيم الذي جئنا اليوم ذاكرين جهاده في سبيل اسعاد البشر واحلال السلام محل الخصام . فما احوجنا لان يبعث الله بيننا ، كلما ادلهم الخطب واحلولك الظلام ، بواحد مثل غاندي كما وارجو ان يكون في اجتماعنا هذا (١) بمناسبة هذه الذكرى العظيمة اعتراف من هذا البلد العربي بما لهذا الانسان العظيم من فضل على المبادىء والمثل التي نعمل نحن في سبيل نشرها وتوطيد اركانها حتى نستحق ان نعتبر من تلاميذ غاندي ومريديه .

ولد غاندي في الثاني من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٦٩ ، وفي العشرين من عمره حصل على شهادة المحاماة من أعرق جامعات انكلترة وعاد الى بلاده ليزاول اعمال الحق والعدل التي تهيؤه الى مرتبة الزعامة وتسلم القيادة في قارة الهند الواسعة .

عندما اكتشف الماس والذهب في جنوب افريقية ، تقاطر اليها عشرات الالوف من ابناء الهند الفقراء سعيا وراء الرزق . ولما شعر المستعمر الاوروبي هناك بارتفاع نسبة الشرقيين — الذين يسميهم الملونين وخاف على ضياع امتيازاته كسيد حاكم — اخذ يضع القوانين والتشاريع التي تساعده على الاحتفاظ بالسيادة واكتساب حصة الاسد من خيرات تلك البلاد الغنية .

ولما شعر العمال الهنود بالاضطهاد والاستغلال رفعوا قضيتهم الى حكومة بلادهم وكانوا اذ ذاك تحت الحكم البريطاني . ولذلك لم تقف معهم حكومتها بل اخذت جانب مواطنيها المستعمرين فكانوا كالمستجير بالرمضاء من النار ! واخذ كثير منهم يعود الى معيشته الضنكة في الهند تاركين ثمرة اعمالهم للمستغلين . وبقي اقلهم يناضل في سبيل قضيته هناك . وقد لجأوا الى الاستاذ غاندي خريج اعرق جامعات بريطانيا حارسة الحق وحامية العدالة .

لبى الشاب الوطني نداء بني جلدته وشد الرحال اليهم وعاش بينهم وكرس حياته لخدمتهم وبجهوده واخلاصه اصبح الفرد منهم يفتخر بانه هندي بعد ان كانوا يخجلون بهنديتهم . واستمر في نضاله طويلا حتى اكسبهم اكبر قدر من الانصاف ولكنه كفر بالثقافة الغربية وتيقن انها مظاهر خداعة وعاد الى تعاليم الشرق وعاداته وتقاليده واخذ يدعو للرجوع اليها فزهد في اللباس واكتفى بخرقة تستر العورة واكتفى بالقليل من الطعام حتى يذل الجسد في سبيل تقوية الروح .

عندما نشبت الحرب العالمية الاولى كان غاندي في بريطانيا فدعا الهنود لتقديم كل عون ومساعدة للانكليز — على رجاء ان يقدروا للهند هذا الصنيع فيسرعوا لمنحها الحرية حالما تضع الحرب اوزارها — لكن الانكليز تنكروا للهند وتمسكوا بسيادتهم عليها واخيرا زجوا بابنها غاندي في غيابات السجون كأي مجرم عادي . ولما غادر السجن نظم حركة المقاومة السلبية وقام بسلسلة من الحملات ضد الحكم البريطاني واخذ يحاربهم بالسلاح الذي من اجله يتمسكون بالهند واعني به سلاح الاستغلال الاقتصادي ، فأخذ يدعو الهنود الى ايجاد الصناعات اليدوية القديمة، علمهم صناعة غزل القطن حتى اصبح المغزل الفخر الوطني للهندي الناهض . ووضع قاعدته الذهبية القائلة « تعسا لشعب لا يأكل مما يزرع ولا يلبس مما يصنع » وبالتدريج برزت حياكة القطن وادى الطلب على النسيج الوطني الى ادخال الانوال ثم الات النسيج الحديثة واخذت الهند تستهلك معظم اقطانها وهنا شعرت معامل بريطانيا بالضربة القاصمة التي سددت اليها من داعية السلام وكانت اول حربة في ظهر المستعمر او اول مسمار في نعشه .

وعندما قام بحملته لتعليم اهل القرى صناعة الغزل بدأ من شمال الهند بعدد قليل كان كلما تقدم نحو الجنوب ينضم الى حركته انصار جدد فكانوا في الحقيقة ككرة الثلج تبدأ صغيرة ولكنها لا تلبث كثيرا ان تكبر كلما تدحرجت من راس الجبل . وهكذا وصل معه الى بمباي مئات الالوف . ومن اطرف ما حصل ان امرأة من عجائز الهند جاءت تقدم اليه عددا من الربيات ، فلما رفض هذا المبلغ انكسر خاطرها وقالت له : « ايها المهاتما لقد علمتني صنعة الغزل التي اغنتني عن التسول واعترافا بجميلك قدمت اليك جزءا مما ادخرت فهو حق لك» ، فأخذ غاندي المبلغ واعتبره اكبر وسام يمكن ان يحلم به . واشترى به « الكنج » تبقى منه حفنة رماد وطلعة من النور ولمعة من الشفافية ، يستحق عليها لقبه الذي اطلقته عليه الهند « مهاتما » اي الروح العظيم .

كذلك فان حياة التلميذ او الابن الروحي « نهرو »

---

(١) الكلمة التي القاها محمود العابدي مدير دائرة الثقافة والاعلام الاردنية في قاعة امانة العاصمة عمان مساء ٣٠ — ٤ — ١٩٦٩ بمناسبة الاحتفال العالمي بالذكرى المئوية لمولد غاندي .

عنزة كان يتغذى بلبنها طوال حياته وقد اصطحبها معه عندما دعي للمفاوضة مع الانكليز لاستقلال الهند .

كان الهندوس منقسمين الى اربع طبقات ارفعها طبقة البراهمة واحطها طبقة المنبوذين. ويبلغ عدد المنبوذين في الهند سبعين مليونا وكانوا محرومين من كثير من الحقوق . فالمنبوذ مثلا لا يحق له الاستفادة من الابار في الارياف ، لانه ينجس مياهها . ولم يكن امام المنبوذ من مخرج من هذه القيود سوى اعتناق الاسلام او المسيحية ، وبذلك فقط يحصل على حريته ولكن تحول المنبوذ عن دينه كان ينتج نتائج سيئة لدى الهندوس وليظل كل مواطن على دينه نادى غاندي بوحدة الجنس البشري تحت نواميس الله ، فكان تبشيره بعقيدته الانسانية يشمل البوذي والمسيحي والمسلم والهندوسي على حد سواء ، وهو يقصد بذلك القضاء على شعور الاقليات بالنقص والحقارة ، ولتحل روح المحبة والعدالة والاخاء محل الطائفية الدينية والطبقية ، طالب بالغاء التقاليد الخاصة بنجاسة المنبوذين الذين يشكلون نسبة عالية من سكان الهند وقد كتب عليها الفقر الى الابد ، وكنتيجة لنضال غاندي في هذا الميدان من ميادين الاصلاح اخذت الطبقات العليا تتنازل عن امتيازاتها الموروثة ولا سيما في المدن . اما في الارياف فلا يزالون يتشبثون بهذه القشور . وفي اواخر حياة غاندي اخذ يصرح بأن الهند هي تلك ال ٥٦٠ الف قرية وفيها تنحصر جهود المصلحين .

كان غاندي يؤمن بان الديمقراطية مبنية على الحزبية السياسية وان هذه الحزبية قد تجمع بين ابناء امة مزقتها الطائفية الدينية او الامتيازات الطبقية . لذلك نادى غاندي بتأليف « حزب المؤتمر الهندي » لقيادة حركة التحرر القومي الوطني وكان هو المهيأ بعدها لقيادة التحرير الاجتماعي وكان برنامجه الصريح هو الصوت الذي ارتفع قبل الاستقلال يطالب بمجتمع جديد في الهند تسقط فيه الامتيازات الطبقية القديمة وان يتسيطر الشعب على الانتاج وان يوجه الانتاج الاقتصاد لصالح المجموع .

يعتبر نضال الهند الحديثة شبه معجزة قام بها رجل نحيل يسير حافيا وراء عنزة عجفاء في يده مغزل بدائي ينادي باللاعنف ضد تحكم اعتى الامبراطوريات واكثرها قسوة ونهما في كل العصور والمعجزة تتجلى في انتصار اللاعنف على جيوش الامبراطورية البريطانية لتعيش الهند مستقلة يحكمها ابنها الروحي بتعاليمه الحية.

ولهذا كان احترام الناس له عميقا نتج مما اكتسبه من تجاربه الروحية التي ارتفعت به عن المديح النفسي بل قادته الى التواضع ، واضعا نصب عينيه الهدف الذي من اجله قاسى ثلاثين سنة ليخلص نفسه من الشرور ، وليصل الى الاخلاص . وفي الحق ان تأثير غاندي ونفوذه على عقول الرجال والنساء لم يبلغه اي شخص آخر .

ويقول رومان رولان وهو اعظم من كتب عن غاندي « لم يأت زعيم سياسي اقوى من غاندي منذ ثلاثة الاف سنة » ويضيف قائلا « المهاتما غاندي شخصية غريبة ساحرة ملأت جو الهند املا يانعا ورجاء غضا ، مستقبل باسم يشع في افق الحياة لهذه البلاد الواسعة . حقا ان امل غاندي هو امل الهند ورجاؤها ، على الرغم من عزلته وابتعاده عن كل مظاهر الحياة » بل كان في تلك العزلة يجمع حوله قلوب الملايين من اجل الهند وسعادتها .

غاندي في عزلته يتملك ارجاء الهند طرا فيخلق منها شعلة تتقد نورا واخلاصا ضاربا بذلك المثل الاعلى لمواطنيه الذين احبوه ومجدوه وجعلوا منه اسما فوق الاسماء وروحا سامية باعثة نور الامل والحياة .

ولقد كان المهاتما غاندي ولا يزال لغزا غامضا في تصوراته واخلاقه وسر عظمته بحيث اثار حوله فضول الكتاب والصحفيين من جميع الاجناس واللغات فأموا داره في منعزله النائي يبتغون ان يظفروا من الزعيم بأحاديث طريفة يسوقونها الى قرائهم وابناء بلادهم .

قال للصحفيين مرة .. « لا اريد لبيتي ان يكون مسورا من جميع الجهات ، ولا اريد ان تكون نوافذي مغلقة . اريد ان تهب على بيتي ثقافات كل الامم بكل ما امكن من حرية ، ولكني انكر على اي منها ان تقتلعني من اقدامي . ان مذهبي ليس دينا مغلقا ففيه مجال لاقل مخلوقات الله شأنا ولكنه يستعصي على الكبرياء العاتية ، كبرياء العرق او الدين او اللون » .

وسأله آخر عن قضية فلسطين ، فأجاب : « انني اعطف كل العطف على اليهود ولكن العاطفة لا تعميني عن متطلبات العدالة . ان الدعوة الى وطن قومي لليهود لا تروقني كثيرا .. ففلسطين للعرب كما هي انكلترا للانكليز وفرنسا للفرنسيين . وانه لمن الخطأ فرض اليهود على العرب . اذا لم يكن لليهود من وطن غير فلسطين ، فهل انهم يستطيعون فكرة حملهم على مغادرة سائر اقطار العالم التي استقر بها مقامهم ؟ او انهم يريدون وطنا مزدوجا يستطيعون البقاء فيه بمحض ارادتهم ؟

ان فلسطين بمفهوم التوراة ليست في البقعة الجغرافية ، بل في قلوبهم . واما اذا كان عليهم ان ينظروا الى فلسطين البقعة الجغرافية ، كوطن قومي لهم ، فان من الخطأ الدخول اليها تحت ظل الحراب البريطانية . ان شيئا لا يمكن قوله ضد المقاومة العربية في وجه الفروقات والتحيزات الغالية » .

لكن غاندي يسقط بعد انتصاره السلمي المجيد صريع رصاصة من مسدس متعصب مجنون في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٨ ويحرق جسده طبقا للتقاليد على كومة من خشب الصندل بجوار نهر الهند

جميلة

جميلة لا جمال الصبح يخلبها
ولا الدراري وراء الليل تبتسم
ولا السماء وأقواس السحاب بها
ولا الفوادي وما جادت به الديم
ولا الهواتف من طير ومن وتر
ولا شميم الربى طافت به النسم
كأنما كل هذا من مفاتنها ..
الضوء والظل والاطياب والنغم

وديع ديب

قد انتهت عندما توقف قلبه عن الخفق منذ اربع سنوات وتحول هو ايضا الى حفنة رماد ذاب جزء منها في مياه الكنج ، واختلط الجزء الاخر بثرى الهند وتلاشى فيه منثورا من الجو في طائرة فوق احمد اباد . ولئن ذهب الرجل العظيم وتلميذه الروحي فان نضال الهند الحديثة ما زال يسعى نحو التحقيق . اما اليوم فان الناس يسألون « هل نفوذ غاندي يسود الهند ؟ وهل ما زال عمله مستمرا؟ ولا يزال الناس يذكرونه بالخير والاحترام؟ »

لقد تمت رسالة غاندي بنيل الهند استقلالها بعد نضال استمر ثلاثين سنة ، كان غاندي خلالها لا يبارى في قيادته لحركة الهند الوطنية ، وعاش ليرى الهند وهي تنال الاستقلال الذي ناضل وشقي في سبيله عندما انتقلت السلطة في ١٥ آب (اغسطس) عام ١٩٤٧ بسلام من يد البريطانيين الى يد الهنود ، وفي هذا الشأن كانت مهمة غاندي قد انتهت .

ومع ان غاندي كان واضع حجر الزاوية لاستقلال الهند الا انه لم يعش ليرى اكمال بناء هذا الصرح اذ لم يكن حيا عندما وضعت الهند نهائيا دستورها في ٢٦ كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٥٠ ، هذا الدستور الذي يحمل كثيرا من المبادىء التي كان غاندي يعتز بها — فهو دستور ديمقراطي — فالحقوق الاساسية في الدستور الهندي تحرم التمييز ضد اي مواطن على اساس الدين والطبقة والجنس ومحل الولادة . ذلك لان غاندي كان يؤمن ايمانا حارا بالمثل العليا كما يؤمن بجوهرها الانساني ولا نبالغ اذا قلنا انه خسر حياته بسبب دفاعه الصلب عن الاخوة الانسانية ، فقد كان حارسا لاخيه الانسان بكل معاني هذه الكلمة . وما الجهود التي يبذلها زعماء الهند في هذه الايام لبناء دولة على اسس صحيحة سليمة الا تعبيرا عن عقيدة غاندي الوجدانية .

لقد ناضل غاندي طوال حياته في سبيل التخلص من شرور المنبوذية الاجتماعية . وكان يشعر بأن ممارسة هذه التقاليد البالية تنافي التعاليم الهندوسية ويشمئز منها العدل الاجتماعي . لذلك وضعت المادة ١٧ في الدستور الهندي لتحرم المنبوذية وتمنع ممارستها بأي شكل من الاشكال ! وضعت استجابة لما كافح غاندي من اجله واليوم لا يعترف القانون الهندي بأي منبوذ . ولا غرابة اذ صرنا نرى في هذه الايام عددا ممن يشغلون مناصب عليا في الدولة كان آباؤهم من الطبقات الدنيا . وقل مثل ذلك عن النواب واعضاء الهيئات التشريعية . وفرضت العقوبات على من يمارس التفرقة بأي شكل كان كما فتحت المعابد ابوابها لهم واتخذت التدابير لرفع مستواهم . وما ذلك الا نتيجة لنضال غاندي البطولي في المعركة التي شنها وحده في سبيل انصاف هذه الطوائف والطبقات . لذلك كان في ازالة المنبوذية وتحطيم اغلال الحواجز الطائفية ما ساعد العمال والموظفين على حد سواء في الوصول الى حياة كريمة .

كان غاندي ينادي بتحريم الخمرة لذلك وضعت المادة ٤٧ من الدستور لتحقيق هدف غاندي ، حفاظا على صحة المواطنين . وتعاطي الخمرة محرم في كثير من ولايات الهند .

نادى غاندي بانعاش الصناعات اليدوية في القرى ، لا سيما صناعة الغزل لذلك وضعت الحكومة منهاجا واسعا لتنظيم الصناعات القروية ومساعدتها وقد خصصت لهذه الغاية مبالغ مناسبة كما احتفظت فاصبحت تلك الصناعة تستوعب مليوني عامل . وهكذا فان اولي الامر حريصون على تنفيذ رغبات المعلم الاول ولو بعد وفاته وهو الذي يعتقد ان الهند تعيش في قراها .

وفي الثاني من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٢ — وهو يوم ميلاد غاندي — وضعت اتفاقية اصلاح الريف الهندي من اراء غاندي التي تعترف بأن القرية هي مركز التطور القومي .

كان غاندي — ككل رجل عظيم — يتطلع الى الحياة كوحدة متكاملة وكان انسانا اهتم برفع منزلة الجماهير عن طريق نشر المعرفة فقضى سنواته الاخيرة في حل مشاكل التعليم وآمن بأن مهنة التعليم تتصل بالحياة اتصالا وثيقا . وكانت افكاره حول التعليم عن طريق العمل اي التعليم الذي يتمركز حول المهنة قد لقيت تعبيرا في مشاريع التعليم الاساسي التي تتبناها مؤسسات ثقافية عديدة في الهند .

وبعد فهل بقي في الهند ناحية من نواحي الاصلاح لم يتطرق اليها غاندي ؟

عمان — الاردن **محمود العابدي**

خليل السكاكيني مربياً

بمناسبة مرور ١٥ عاما على وفاته

بقلم حمودة زلـوم

* * *

يعتبر خليل السكاكيني بحق ، رائد التربيـة الحديثة ، وواضع حجر اساسها على اسس تربوية صحيحة في وطننا العربي الكبير ، حتى ان هذا الجانب كاد يطغي على الجوانب المتعددة من نشاطاته المختلفة في مختلف الميادين.

وآراؤه في التربية شديدة الشبه من الناحية التربوية ، بهنري بستالوزي المربي السويسري الذي عاش في اواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فكلاهما احب الاطفال وعطف عليهم وكلاهما نادى باصلاح المدرسة وجعلها كالبيت العائلي يسيطر فيها المحبة والشفقة والحرية .

وقد كانت كما يقول جبرائيل كاتول ، فلسفة واضحة الاساليب والاهداف ، تتجلى في شخصيته وحياته ، فقد كانت له فلسفة ، من احدث ما توصل اليها البشر في هذا العصر ، وهي قائمة على احترام الفرد ، ومنحه الحرية لكي ينمي قواه ، فينشأ مواطنا صالحا محترما لنفسه ولسواه ، ومستقل التفكير والعمل ، وهذا اسمى ما تنشده التربية في القرن العشرين .

فقد كان يؤمن ايمانا عميقا ، ان احترام التلميذ ، واحسان معاملته ، والتغاضي عن عيوبه ، كل ذلك كفيل بأن يخلق منه شخصا جديدا جيدا ، والتعليم في رأيه ليس ادخارا او استظهارا ، ولكن حياة واستعمال ، ففي معرض حديثه عن مدرسته يقول « مدرستنا حرة ، ولست أعني انها تهيء طلابها لان يكونوا احرارا في المستقبل ، ولكنها تريد ان يكونوا احرارا منذ اليوم ، اذا لم يكونوا احرارا منذ اليوم ، فلن يكونوا احرارا ابدا » .

وكان فخورا بكونه معلما ، وكان يرى انه لا يصلح الا ان يكون معلما ، فرؤيته لتلاميذه تبعث فيه النشوة والسعادة ، والقوة ، فهو القائل « ليس شيء بين اعمال الناس وصناعاتهم اجمل منها ، (صناعة التعليم) ولو عدت الى الحياة – لا سمح الله – لما اخترت الا ان اكون معلما وقد أختار ان اكون معلما للاحداث ، فان معاشرة الاحداث لذيذة جميلة » .

اما المعلم عند السكاكيني ، فهو بطل مجهول ، يجبل النفوس ، ويسيرها كما يشاء ويصفي العقل من الخرافات والاوهام ، ويغرس في نفس المتعلم ، الحق والفضيلة والقوة والابتعاد عن الخور والجبن ، ويحمل السكاكيني على كارلايل صاحب كتاب الابطال ، الذي تناول البطل في دور نبي والبطل في دور قائد ، والبطل في دور شاعر ، والبطل في دور قسيس ، ولم يدرج في عداد ابطاله ، البطل في دور معلم لذا يتعجب متسائلا « ومن احق من المعلم ، ان يكون في عداد الابطال ، وهو الذي يصنع الابطال ويصنع العظماء ويكون آلامم بل ويغير العالم » .

فخليل البطل ، نراه يهتبل اية فرصة ليقدم لطلابه ، خلاصة تجاربه في الحياة ، فمرة يخطب بالخريجين ليقدم لهم ، وصايا عشر ، اشبه ما تكون بكرة ملتهبة تلقى في كهف مظلم « ايها الخريجون ، بم اوصيكم ؟ ستجدون من الناس من هم اشبه بالملائكة ، ومنهم من هم اشبه بالابالسة ، اما الملائكة فكونوا معهم ملائكة ، واما الابالسة فالويل لهم منكم ، ستجدون من الناس من يسرق ليعيش ، ومنهم من يعمل ليعيش ، فاذا لقيتم النوع الاول ، فلا تسلموا على احد منهم قبل ان تعدوا اصابعكم ، واذا لقيتم النوع الثاني ، فاحنوا رؤوسكم الى الارض اجلالا لهم ، حاولوا جهدكم ان ترضوا الناس اجمعين ، ولكن اذا كان هناك من الناس ، من لا يرضيه شيئا ، فليشرب البحر ، لا تتعدوا على احد ، ولا تسمحوا لاحد ان يتعدى عليكم ، تساهلوا في كل شيء الا في كرامتكم ، الحياة فضيلة ولكن اذا حاول الاشرار ان يستغلوا حياءكم فلا تكونوا ذوي حياء ، الكرم فضيلة ، ولكن اذا طمع الاشرار في كرمكم فلا تكونوا كراما » .

وخليل المعلم ، هو الذي ثار على مفاهيم التعليم الجامدة التي كانت سائدة في البلاد العربية ، ابان الحكم العثماني ، المعتمدة على الضرب والعقاب ، والمعارف والعلوم الواهنة ، المغلفة بغلاف الخرافات والجمود ، ويعلل السكاكيني سبب ذلك بقوله « ان الحكام هم الذين كانوا يشجعون الخرافات ، كيلا تتفتح اذهان الناس الى ظلمهم وبطشهم » ، لاجل ذلك كان يعتقد ان الدواء الوحيد لانهاض الامم وتقدمها هو العلم الخالص من الخرافات واحياء الاداب القديمة .

جميع ما سبق ذكره ، يجعله بحق ، معلم الجيل ، ولعل حديثه الذي اسوقه يؤيد ذلك « لا تسلوني كم مر علي من السنين في صناعة التعليم ؟ فان ذلك سر مكتوم ، لا تطمعوا ان تصلوا اليه ولكن قد يكفيكم ان اقول : اذا كان الجد من له اولاد واحفاد فاني بين المعلمين من الجدود الكبار » . خليل السكاكيني يضع منهاجا للغة العربية :

يقول علماء التربية ، ان وضع منهاج دراسي معناه ، تحديد الثقافة ، وتحديد مداها لابناء الامة فالمنهاج يجب ان يقرر نوع الثقافة التي يتطلبها المجتمع ، والتي تقرر حاضره ومستقبله ، فاذا كان البلد زراعيا مثلا ، سائرا في طريق التحويل الصناعي فيجب على المنهاج ان يهتم بهذه

الظاهرة ، والواقع ان حياة الامم والشعوب ، في تطور دائم وتغيير مستمر ، لذلك يجب ان يكون المنهاج ، مرنا فضفاضا متمشيا مع متطلبات الحياة ، مشيرا الى ضرورة الاسلوب المناسب التي يبعث ويحث على البحث والتدقيق لا مجرد حشو المعلومات في عقل الطالب ، فالبحث والتدقيق هما اهم اهداف التربية في هذا العصر .

وقد اجمع المربون على ان المنهاج ، هو الاساس الذي ترتكز عليه بناء التربية والتعليم ، فاذا كان الاساس قويا متينا ، اصبح البناء قويا راسخا ، وان كان واهنا انهار مع اقل صدمة . !

وقد اصاب السكاكيني حينما قال « اذا اردنا ان ننهض فعلينا ان نحسن اختيار الادب ، الذي نلقنه الى الناشئة والا كنا كمن يتجرع السم بيده » . وقد آمن ايضا بخطورة المناهج لذا فهو يرد على ابنه « سري » والذي عابه في ذلك بقوله « ... يظهر لي من كلامك ، انك تستهين بكتب القراءة المدرسية ، وقد فاتك ان كتابا صغيرا يوضع في ايدي الاطفال ، قد يكون له اثر في نهوض الامة وسعادتها ، أبعد مما للكتب الادبية الضخمة العظيمة ، يدلك على ذلك ان يكون من جملة الشروط ، التي املتها النمسا ومن ورائها المانيا القويتان الجبارتان قبل نشوب الحرب الكبرى ، على سربيا الصغيرة الضعيفة ، ان تلغي كتاب قراءة كانت تستعمله في مدارسها الابتدائية ، اليس من العجب ان تخاف النمسا والمانيا القويتان الجبارتان من كتاب صغير ؟! » .

والسكاكيني الذي نذر نفسه لامته وتلاميذها مستعد لعمل اي شيء ليخدم امته وبلاده يقول « ولو وجدت شيئا أقل من كتب القراءة وعرفت انه يفيد الامة ، لما كان بمقدوري ان اعمله ، ولقصرت همي عليه » .

لهذا كله التفت رائد التربية العربية الحديثة الى الطفولة ، صانعة المستقبل ، ورجال الامة في الغد المرتقب ، فوضع لها منهاجا مدرسيا فريدا من نوعه سماه « الجديد في القراءة العربية » في اجزاء اربعة طبق فيه نظريته في التربية والتعليم ، وقد تطلبَّ منه هذا العمل الشاق ، البحث والتحضير والتمحيص وسعة الاطلاع ، وسارع السكاكيني يتحدث عن ذلك بنفسه « وقد افرغته في احسن قالب ، وبنيته على احدث الاراء والمبادىء واستطيع ان اقول في غير غرور أو ازدهار ، انه لم ينسج على منواله في اللغة العربية ، وقد راعيت في تأليفه احدث الاصول والمبادىء اذا قيس بغيره من كتب القراءة في اللغة العربية ، بل اجيز لنفسي ان اقول في اللغات الغربية كان اقربها الى الفن واجمعها لشروطه » .

وحقيقة ان السكاكيني لم يكن اول من أعطى وقته لوضع المناهج المدرسية ، فقد سبقه كثيرون ، ولكنه بزهم وسما عليهم ، اذ ان مؤلفاتهم كانت قصيرة الاجل ، تخلو من عنصر الحياة والتطور ، واعتقد جازما ان المحاولات التي سبقت السكاكيني في هذا المجال قد افادته افادة عظيمة ، ووضحت له الطريق ، ومن اوائك النفر ، المعلم نخلة زريق وعيد سالم وكتابهما « مجموعة اشعار للطلاب المتأدبين » وكذلك خليل بيدس صاحب مجلة « النفائس العصرية » المقدسية الذي علم في المدارس الروسية في حمص وسوق الغرب ، وبسكنتا وحيفا ثم في المدارس اليونانية والانجليزية في القدس ومن تصانيفه المدرسية ، « العقد الثمين في تربية البنين » سنة ١٨٩٨ « والكسور الدارجة والكسور العشرية » سنة ١٨٨٩ ، و « درجات الحساب » جزءان سنة ١٩١٣ و « درجات القراءة » في ستة اجزاء سنة ١٩١٩ ــ ١٩٢١ ، ومن اولئك الطلائع والرواد في دنيا التربية اسعاف النشاشيبي ، اديب العروبة والاسلام ، مازني الشام وعقاده فقد الف كتابين اثناء عمله في التفتيش هما « مجموعة النشاشيبي » سنة ١٩٢٣ و « البستان » سنة ١٩٢٤ والكتاب من عيون المنظوم والمنثور جعله في سبعة اجزاء تتلائم ومستوى تلاميذ المدارس الابتدائية .

بعد تلك المحاولات جاءت تجربة السكاكيني مكتملة ناضجة ، فيها الحياة والاستمرار والتطور ، لم توجد في كتاب سواء وضع قبله ام بعده ، فمنذ طبع « الجديد » باجزائه الاربعة ، لم ينافسه كتاب في دنيا المناهج المدرسية ، وان كانت هناك محاولات تحاول ان تسدل الستار على « الجديد » ، لكن سرعان ما تنكشف الحقيقة في عدم جدواها فيعودون اليه .

ولقد اشتهر «الجديد» الاول باسم آخر هو كتاب «راس روس » ويتعلم فيه الطلاب في اول سنة دراسية وقد تحرى خليل في وضعه امرين اولهما : ان يبنيه على احدث الاساليب بما وسعه الجهد ، واعان عليه الاختيار من اتقان ، وثانيهما : استدراك الحروف والحركات ، وكل ما يتعلق بالقراءة والاملاء ، ما فات الكثيرين من مؤلفي المناهج وواضعيها ، والسكاكيني عندما وضع « الجديد » الاول وضع له الدليل الاول شارحا فيه طريقته في وضع الكتاب ، وانجع الطرق لنجاح العملية التربوية وهو أشبه بديالوج لفهم « الجديد » الاول . وقد اعتمد السكاكيني في وضع « الجديد » الاول على مراجع كثيرة ، لكن ابرزها « دروس في اصول التدريس » و « طريقة تعليم الالفباء » وكلاهما للاستاذ ساطع الحصري ، ثم كتاب « المباني الاساسية » لروفائيل طرزي . ويشيد بهذين الاستاذين الحصري والطرزي ، فيقول في مقدمة «الدليل» الاول « وهنا يجدر بي ان اجهر بالثناء على هذين الاستاذين فقد استفدت من بحوثهما وآرائهما كثيرا » . ولا مجال للشك ان خليلا لم يضع المنهاج خبط عشواء ، ولكن نتيجة فهم ووعي وصبر فقد استغرق الجزء الاول من «الجديد» سنتين ، اتبع فيه اسلوب الكلمة تكتب على السبورة فيقرأها المعلم مرتين او ثلاث مرات ويكررها التلاميذ الى

ان يستظهروها ، ثم يحللها المدرس الى حروفها فيعرفهم على كل حرف باسمه او بصوته ، أي ان طريقته تسير من الكلمة الى الحرف ، وبعد التحليل يركب التلاميذ من الحروف التي عرفوها كلمات جديدة ثم تركب جملا ثم قصصا . اذن فالاسلوب الذي اتبعه السكاكيني في هذا الجزء هو الاسلوب التحليلي ، اذ جمع في كتابه هذا اسلوب الكلمة واسلوب الجملة واسلوب القصة وهي تجربة جديدة جيدة ، نرجو ان يوفق غيره الى تحسينها. ثم اتبع « الجديد الاول » بجزئين آخرين هما ، « الجديد الثاني » و « الجديد الثالث » ، وفيهما يكثر خليل من القصص الهادفة والارشادات النافعة وقاريء الكتابين يلمح من خلال قراءته بوضوح وجلاء روح السكاكيني المرحة ومذهبه في الحياة وهو مذهب القوة ، ومن شاء فليرجع الى الجديد باجزائه الاربعة ، يؤكد ذلك ما ذكره الدكتور نقولا زيادة حين قال « في الجديد ايمان آمن السكاكيني بمبادىء ومثل عليا ، جعلته في طليعة الرجال، فقد كان يؤمن بالمساواة الحقة بين بني البشر ، وكان يؤمن بالسلام في اطار من العزة القومية وكان يؤمن بأمور اخرى كثيرة قد يكون تعدادها مستحيلا وهذه المبادىء متمثلة في « الجديد » ، فليس فيه قصة او قطعة تهدر كرامة الانسان او تنقص من مساواة ، وليس في الكتاب قصة حقد او كره ، او انتقام تجري الدماء له انهارا ، ولكن الكتاب فيه الكثير مما يربي الرجولة ويهيء نفوس هؤلاء الصغار لان يكونون كبارا حتى في الصغر » .

اما « الجديد الرابع » ، فكثيرون من ظلموا السكاكيني بوضعه ، ونادوا بالغائه ، باعتبار أنه جاف خال من الفائدة ، ولكن من فهم هذا الكتاب ، يقدر السكاكيني ويعظمه ويعظم الكتاب ، فالكتاب ، كتاب قراءة ، وكتاب أنشاء ، وكتاب قواعد عربية ولغة وتاريخ وصحة وحكم واستمتاع ، اللهم الا في بعض الصفحات التي تبدو جافة لا ضرورة لها ، لذا فاني أهيب بواضعي المناهج ان تنظر الى هذا الكتاب بتمعن ويقظة ، واصداره بما يتلائم والحاجات والاغراض المرجوة ، والحاق صفحات لشرح الغامض فيه امام المدرسين ، فالسكاكيني انسان ، يصيب ويخطىء والكمال لله وحده .

ويطيب لي ان اثبت في بحثي هذا بكلمة لمؤلفي كتاب « ادبنا في مختلف العصور » تقول « ... فكان من اقدر المربين واقربهم الى فهم اساليب التربية والتعليم الحديثة ، وتطبيقها ، فانشأ كتابه « الجديد في القراءة العربية » ، الذي طبق فيه نظريته في التعليم الحديث وجعله في اربعة اجزاء ، نجح منها الاجزاء الثلاثة نجاحا يندر ان يفوز بمثله كتاب آخر ، فقد تكررت طباعته عشرات المرات وانتشر استعمالها في سائر الاقطار العربية تقريبا ، ولا تزال تتمتع بشهرة غير قليلة ، على الرغم مما الف للاطفال من كتب لمثل غايتها في العالم العربي »

وحقيقة ان « الجديد » منذ بزوغ فجره في سماء المدارس العربية وهي تزداد قيمة وتألقا ، فقد مضى على اخراجه نحو اربعين سنة تقريبا لا يزال شابا قويا يؤدي دوره على اكمل وجه .

والسكاكيني لم يضع المنهاج فحسب ، بل كان واسع الافق مصيب الفكرة ، صائب الراي ، طويل النفس حينما اخرج كتاب « الدليل الاول » الذي سبق الحديث عنه ، وشرح فيه طريقته كما طبقها في « الجديد الاول » ليسير على هداه المدرس ، وعمله هذا يبين مدى اصابة تفكيره لفهمه خطورة المرحلة الاولى للتلميذ فالرحمة عليك يا صاحب « راس روس ودار دور » .

ثم تلا « الدليل » بكتاب اخر ، هو « الدليل الثاني » ، وهو زبدة تجاربه واستنتاجاته ودراساته في حقل التربية والتعليم شرح فيه الاساليب التربوية الناجعة في تدريس مواد اللغة العربية ، كالقراءة والكتابة ، والانشاء ، والمحفوظات ، والقواعد العربية ، ووقف وقفة جريئة جديدة عند الاخيرة ، وتناول اساليب تدريسها التي سار عليها السلف والخلف ، فينقدها مبينا العيوب والفوائد دراسة عالم فاهم ، ويذكرها بأنها اساليب ثلاثة ، هي الاندلسي ، الذي يجمع بين القواعد والشواهد ويسار فيه من القاعدة الى الشاهد او العكس ، ورأي خليل في هذا الاسلوب هو انه اذا كان فيه فائدة ففي شواهده لا في قواعده ، وثاني تلك الاساليب ، الاسلوب المغربي ، وهو الذي يقتصر على القواعد دون الشواهد ، كأن القواعد غاية في ذاتها ، ثم يستشهد السكاكيني برأي ابن خلدون في هذا الاسلوب « ان العلم بقواعد الاعراب ، انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ، ولذلك نجد من الجهابذة والمهرة في صناعة العربيــة والمحيطين بتلك القواعد اذا سئل في كتابة سطرين الى احد من ذوي مؤونة ، او شكوى ظلامة ، او قصد من قصوده ، اخطأ » ويؤكد السكاكيني رأي ابن خلدون بقوله « انهذا الاسلوب — المغربي — لا أثر له في احسان الملكة بل قد يفسدها » . وثالث هذه الاساليب هو الاسلوب الخلدوني ، وهو الاسلوب الذي نادى به خليل السكاكيني ، في المؤتمرات اللغوية وبمجمع اللغة العربية وباخراجه كتابا يسير على نفس الاسلوب بعنوان « عليه قس » وقد وضع هذا الكتاب لخدمة الطالب ليس الا وفيه يفرض اهم مواضيع القواعد التي تهم الطالب ، على الاسلوب الخلدوني الذي

المراجع : ١ — المجموعة الكاملة لمؤلفات السكاكيني جزءان . ٢ — ذكرى السكاكيني — جبرائيل كاتول ، انيس فريحه ، نقولا زيادة . ٣ — ادبنا في مختلف العصور : عيسى الناعوري وزميلاه . ٤ — الدليل الاول والدليل الثاني خليل السكاكيني . ٥ — اتجاهات ادبية حديثة للدكتور ناصرالدين الاسد . ٦ — كذا انا يا دنيا لخليل السكاكيني (جمعته كريمته هالة) . ٧ — دراسات في المناهج لوهيب سمعان . ٨ — مجلة الاديب . ٩ — مجلة فلسطين . محمد صالح يونس .

لاعب السيرك

من الديوان المعد للطبع « عبير من دمشق »

عدنان مردم بك

* * *

لج يستهدف المكاره عمدا … بجنان امضى من الهول حدا
واتى بهرة السباق مدلا … بشباب يشاقب النجم وقدا
يتحدى قوافل الذعر لما … بسط الكف للردى واستعدا
لم يرعه الردى وقد نشر الرعب … حبالا على الفضاء وحدا
رفعت كالصراط ما ثم شك … حين ارخى من دونها الموت بندا
واستسر القضاء يكمن في الحبل … لسوء كالنصل عانق غمدا
حسر الرعب دونها عن لثام … وجمت اثرها الجوانح جهدا
وبدا الهول عاصفا كخصم … يتلوى غيظا ويعصف حقدا

حمد الناس للفتى ما أتاه … من ضروب الاغراء هزلا وجدا
خلب العين بالجليل فاغضت … دونه العين للذي هو أبدى
يتلوى كالصل مدا وجزرا … ضاربا في الفضاء جزرا ومدا
في قشيب من الشباب عجيب … كانبلاج الصباح حين تبدى
وشباب كما أفاء بروض … واكف للغمام او هو أندى
او كقوس السحاب يسحب بردا … من ضياء وينشر النور بردا
او كنفح الرياض في وضح الفجر … ترامى عبيره وتندى
غمر الارض بالعبير فطابت … بشذاه الاكام غورا ونجدا

واذا بالفتى يمد الى الموت … ذراعا والموت يبسط زندا
حث خطوا كضارب في قفار … مستشيبا يد المروءة رفدا
وجرى في الفضاء فوق حبال … هي كانت من المقادير أعدى
والفراغ الرهيب يفغر شدقيه … كضار في القفر آنس صيدا

اعجب به ورآه الاصلح .

وهكذا ، نرى السكاكيني وهب اكثر سني عمره ، وزهرة شبابه في التعليم ، معلما ومرشدا وموضحا للمعلمين والطلاب على السواء ، وراضيا كل الرضى ، باداء هذا الواجب المقدس رغم ان صناعة التعليم ليست بالامر السهل لذا يقول بأسلوب ساحر أخاذ « لو تعلمون صناعة التعليم لكان الخليق بكم ان تهنئوني اني لا ازال حيا ، فان عشر سنوات في صناعة التعليم كافية لان تهد الجبال ، فما قولكم بعشرات السنين ، ولا سيما في عصر أصبح الطلاب فيه اشبه بالعفاريت منهم ببني آدم » . ويقول في موضع آخر بنفس الاسلوب الساحر « بل ما احلفكم ان تهنئوني اني لم (اشنق) نفسي بيدي تخلصا من حل مشاكل الاولاد الصغار والقضاء بينهم وقد قيل (قاضي الاولاد شنق نفسه) ، على ان صناعة التعليم في الوقت نفسه ليس شيء من اعمال الناس وصناعاتهم اجمل منها »

وقد انصفه الدكتور انيس فريحة حين قال « عندما نعيد النظرة مرة اخرى في برامج العربية ، وعندما نعيد النظر في اساليب تدريسها ، وعندما نرغب حقا تيسير اللغة العربية فاننا سنرى انفسنا ـ مرة اخرى ـ تلاميذ السكاكيني » .

ولم يكن السكاكيني ، معلما للتلاميذ ومرشدا للمعلمين فقط ، بل كان معلما للمجتمع ، يهتبل اية فرصة ليلقي بدروسه وعبره وعظاته ليعلم الناس الجرأة والقوة والصراحة .

الزرقاء ـ الاردن **حمودة زلوم**

لجج للفراغ ما ثم شك	وقف الموت دونها مستعدا
وترامت عواصف الرعب فيها	تتهاوى كالثلج جزرا ومدا
تذهل النفس دونها من خشوع	وتفض الابصار رعبا وجهدا
وتخطى الفتى الجبال بحزم	باسما للردى كمن يتحدى

هتف الناس كالذئاب وهبوا	يبتغون المزيد مثنى وفردا
ومضوا يلحفون دون انقطاع	لتعاد المأساة فصلا وبندا
أيقظتهم غريزة الاسد الورد	فراحوا كالاسد تزأر حقدا
لو هتكت النقاب لانكشف السر	وعاد الحميم خصما ألدا
ولعفت الرجال عبدا وحرا	وسئمت الرجال حرا وعبدا
اقلوب تلك التي حملوها	ام تراها قدت من الصخر صلدا
والفتى يحدج الجموع بصمت	ويطيل التحديق فيهم رويدا
لو جرى بالعتاب منه لسان	لافاض اللسان بالناس نقدا

خفق الحبل مشفقا كرؤوم	حين دف الفتى عليه مجدا
ليت شعري أللحبال قلوب	هي كانت من مهجة الناس اندى
تجد الناس حيثما وجد الناس	قطيعا يسعى لسوء ويجدى
نعمت بالاذى قلوب البرايا	واستطابت ورد القطيعة وردا
أجد الصخر كان ألين قلبا	من بني الناس والسوائم أهدى
رب صخر تفجر الماء منه	فشفى لاعجا وأطفأ وجدا
ومرد الاحقاد والسوء قلب	لم يكن دهره عن السوء يهدا
عالم الشر عالم ما تعدى	هذه الارض او تجاوز حدا

هلل القوم للفتى وتباروا	ينظمون الثناء والحمد عقدا
والفتى واجم يشيح عن القوم	بوجه والحزن يعصف وقدا
أفزعته حقيقة الناس لما	خبر الناس معدنا وفرندا
ظاهر نير كما بسم الفجر	يواري قلبا من الهول أعدى
لو جرى بالعتاب منه لسان	لافاض اللسان بالناس نقدا

انها الحاجة الملحة اوحت	ان يرود الفتى المنية وردا
لقمة مرة يغص بها الحلق	وكانت على المرارة تفدى
ليس بدعا اذا الفتى ركب الهول	اضطرارا لدرء ما هو أردى
يقتضي العسر ماجدا ان يؤدي	من بياض الاحساب ما لا يؤدى
وعزيز على الكريم خنوع	رب موت من المذلة أجدى
سائل الناس جاهل قحم الموت	ليستمتع الموت رفدا
فاعذر الحر جاهدا وتلمس	لكريم عذرا اذا ما ترده
وترفق ببائس نشد العرف	فكف الاحسان في الخطب تسدى
لو سخا الناس بالقليل لاغضت	عين باك لم تغمض الجفن سهدا

دمشق	عدنان مردم بك

امرأة وعجوز ابله

مهداة الى ابطال المقاومة العربية الذين يجمعون اشلاء الامل من صحاري اليأس

بقلم اسماعيل علي اسماعيل

صحت من نومها تحس جفافا في حلقها .. انزلقت من فوق الفراش ، وعمدت الى قلة على حافة النافذة .. رفعت القلة الى فمها ، وافرغت منها جرعات كثيرة في جوفها ، ثم استدارت تنظر الى السرير وهي تمسح فمها بظهر كفها .. تبينت انها كانت تنام وحدها .. نفخت بغيظ وهي تتجه ناحية باب الغرفة .. متى تسلل العفريت من جوارها ؟ فتحت ضلفة الباب ونادت :

ــ ولد ..

لفحتها نسمة ساخنة ، آتية من المشى المنتهي الى الحوش القريب .. كررت نداءها :

ــ ولد ..

لم يتردد صدى لندائيها .. غيبهما السكون المطبق على البيت في جوفه .. تراجعت عن الباب وهي تدمدم حانقة :

ــ الملعون .. يخرج في هذا الحر ..

نزعت قميصها .. مسحت به وجهها وجيدها قبل ان تطوح به فوق السرير .. لبست فستانا غامقا .. مكثت لحظة امام المرآة المثبتة بالضلفة الوسطى للدولاب .. تمشط شعرها .. وتسوي فستانها ، ثم انفلتت خارجة ..

مدت بصرها .. الشارع خال .. تنسكب اشعة الشمس الملتهبة على ارضه ، فتنز سوادا لزجا .. انحرفت الى شارع آخر .. مارة قليلون يتدافعون فوق الرصيفين في تراخ وملل .. سيارة صغيرة تمرق بسرعة .. انسحبت الى شارع ثالث بخطى اسرع ، وعيناها تتلفتان بفزع ، وتتهافتان على كل ما تقعان عليه .. هل يمكن ان تجده وسط هذا الزحام ؟ .. المارة كثيرون .. يتصارعون بالمناكب والصدور على شريط الظل المترامي فوق الرصيف .. والعربات اكثر .. تتابع وسط الشارع بسرعة وهوس .. تلحس عجلاتها السواد اللزج ، وتمضي بكبريائها المغلق على من بداخلها .. فكيف تعثر عليه ؟ ..

سارت اسفل الرصيف ، لتتفادى صراع المناكب والصدور ، وتتحاشى البحث عن مسار لا ينحرف كثيرا عن شريط الظل ، ونظراتها تمسح ضفتي الشارع .. تحوم فوق رؤوس المارة .. تنزل بين اجسامهم ، وزفرت متوعدة :

ــ طيب يا ملعون ..

وانفرطت دمعة من عينها .. لم تأبه لها .. تركتها تنساب على خدها ، وتختلط بقطرات العرق التي تغطي وجهها .. وقرب تقاطع الشارع بآخر ، خطف بصرها دم يلطخ الاسفلت .. تسمرت قدماها بالارض دفعة واحدة .. الدم ما يزال لزجا ..

ويتوهج في ضوء الشمس .. وهي تنظر بارتياع ، لحظت كناسا يزيح الزبالة والنفايات بمكنسته الطويلة ، موشكا ان يغطي بها البقع اللزجة اللاصقة بالاسفلت .. نزعت قدميها وجرت الى الكناس تسأله بلهفة :

ــ هل وقعت هنا حادثة ؟ ..

اجاب الكناس دونما ينظر اليها :

ــ الحوادث كثيرة ..

واستطرد وهو يواصل الكنس :

ــ لم يبق مكان يخلو من الحوادث ودمائها .

اوشكت ان تتكلم .. سبقها :

ــ ولا احد يهتم ..

امسكت بكتفه وهي تصرخ في وجهه :

ــ ومن الذي مات ؟ ..

تفحصها الكناس باستغراب ، ثم قال بتهكم وهو يخلص كتفه من قبضتها :

ــ يعني من الذي تظنيه قد مات ؟ .. واحد بني آدم ..

ورجع الكناس يستأنف الكنس بمكنسته الطويلة ، وبسمة غامضة تترقرق فوق شفتيه ..

وهي مكانها تتابع الكناس بنظرة شاردة ، لمحت عسكري المرور يقف تحت مظلته ، فاتجهت اليه وسألته وهي تشير ناحية الكناس :

ــ من الذي قتل هنا ؟ ..

اولاها العسكري نصف التفاتة واجاب بامتعاض :

ــ متى ؟ ..

ــ اقول من قتل هنا ؟ ..

قال بنرفزة وهو يرقب تقاطع الشارعين :

ــ اعرف .. في الصباح .. وقت الضحى .. امس .. اول امس .. في كل لحظة يقتل واحد ..

قالت ونبرات صوتها تخفت وتوشك ان تختنق :

ــ انا أسأل عن صبي صغير ..

قال بنفاد صبر وهو يلوح للسيارات القادمة من اليمين ان تواصل المسير :

ــ الصبية الذين يموتون او يصابون كثيرون فكيف اعرف صبيك ؟ ..

تحولت عنه .. خطوتان فوق الرصيف ، بعدهما جمدت مكانها .. **تساقطت دموعها ، ودهمها دوار ، فتغبشت المرئيات حولها واهتزت .. من وراء دموعها المتشبثة** بأهدابها : لحظته يشير اليها .. لم



تصدق .. مسحت عينيها وحملقت تجاهه .. تأكد لها انه يدعوها ، فتولتها دهشة وارتباك .. ماذا يريد العجوز منها ؟ ..

استمرت واقفة ترفق العجوز بحيرة .. والعجوز من مكانه فوق الرصيف المقابل سادر في التلويح لها ، وبسمة ترحيب فوق شفتيه، تكاد تضيع بين شعر لحيته الغزيرة وشاربه الكثيف ..

تحركت بتثاقل .. عبرت الشارع ونظراتها تسبقها .. تتفحص العجوز .. بادرها العجوز وظل قامتها يقترب من قعدته :

— ماذا قال لك هذا العسكري ؟ .. لا تهتمي له .. انه متعجرف ويحاول ان يبدو كتوما ..

بهتت ، ولم تجد ما تقوله ، فأبقت فمها مغلقا ..

والعجوز يبادلها نظرات متأملة ، رفع صوته كأنه يقرر حقيقة بعيها تماما :

— ابنك ضاع ..

انفتح فمها عن صرخة مشروخة ، وهي تلقي بنفسها بين يدي العجوز .. وارتعشت شفتاها والكلمات تتدافع من بينهما :

— كيف عرفت ؟ .. قل .. كيف عرفت ؟ .. وهل انت تعرفه ؟ ..

دس العجوز اصابعه المعروقة في شعره المغبر الاشعث ، وحك جلدة رأسه مرات ، ثم قال بتؤدة :

— كان مع كثيرين .. لكن لا تجزعي فسوف يعود ..

وبعد لحظة صمت ، قرب وجهه منها وراح يهمس :

— سمعت ان احمس يعد في الخفاء لحملة جديدة يغزو بها الصحراء .. ويستعيد الابناء الضائعين .. وهذا العسكري المتعجرف لا بد يعرف ذلك لكنه لا يفصح عن شيء ..

وانقلب يطوح رأسه يمنة ويسرة ، ويضغط على مخارج حروفه :

— ليس عنده غير .. انا عسكري شرطة .. اذهب .. انا عسكري شرطة .

وابصر العجوز الكناس يدنو منهما ، وهو مستغرق في الكنس بمكنسته الطويلة ، فاسترسل بحنق:

— وهذا اللعين لا يختلف عنه .. اقول له لماذا لا تخرج ورفاقك الى الصحراء .. فيقول نحن مكلفون فقط بتنظيف المدينة حتى لا يستاء الناس ويسخطون على رئيس المدينة .. اما الصحراء فقليل من يذهب اليها .. فلم نتعب في تنظيفها ؟ .. الابله يتصور مسئوليته لا تتجاوز داخل المدينة ..

اسماعيل علي اسماعيل

•

وانحنى عليها هامسا :

— لكن بيني وبينك .. رئيس المدينة ينوي جمعهم وارسالهم الى هناك .. في اسبوع النظافة القادم.

بان الارتباك واضحا على محياها ، وافضحت نظراتها التائهة عن حيرة وعدم فهم .. وتململت في قعدتها ، ثم همت تقوم ..

امسك العجوز بساعدها ، وتمتم والدموع تتجمع في عينيه الكليلتين :

— الى اين يا ابنتي ؟ .. الم تخرجي للبحث عن ابنك ؟ .. سأقوم لنبحث عنه معا ..

انجذبت ثانية الى قعدتها ، وعيناها على العجوز تتمليانه .. وصبر العجوز ثوان صامتا ، ثم خاطبها :

— ما رأيك لو ذهبنا الى الصحراء ؟ .. الاولاد تستهويهم الاماكن البعيدة .. وولدك حتما ذهب الى هناك مع الاخرين ..

وهب واقفا ، وترنحت بسمة واهنة فوق شفتيه ، وهو يشدها من ساعدها لتنهض معه .. وتنازعها الامتناع والاذعان ، قبل ان تسأله بخفوت :

— الى اين سنذهب ؟ ..

احتضنها بنظرة متأنية ، واجاب وبسمته تستقر فوق شفتيه :

— الى الصحراء .. هؤلاء الاولاد انا اعرفهم .. يفتنهم الخلاء البعيد .. ولا يملكون الا الذهاب اليه ..

وشرع يمشي واصابعه تقبض على ساعدها .. ومشت الى جانبه وهي تسترق النظر الى ثيابه الرثة المهترئة .. وشعره المغبر الاشعث .. ولحيته الخشنة القذرة .. وقامته المرسلة الى امام في انحناءة خفيفة .

وغابت عنه مع غياب وعيها ، وتشتت ذهنها .. لماذا يتطوع العجوز بمصاحبتها ؟ .. وكيف عرف ان ابنها ذهب الى الصحراء ؟ .. وما سر خلطه في كلامه ؟ ..

وجاءها صوت العجوز هادئا :

— لو قام ايزوريس من بين الاموات لما تعرف على ايزيس ..

التفتت اليه، فوجدته يمد بصره على امتداد الشارع ، ولا يبين عليه انه يحادثها .. واحس بالتفاتها ، فاستدار اليها قائلا :

— لم يبق في المدينة امرأة تلبس السواد ..

ومصمص شفتيه ثم اكمل ونبرة تهكم حزينة تشيع في صوته :

— يقولون الاسفلت اسود فلم نضيف سوادا الى سواد ؟ ..

وسكت العجوز .. وواصلت المشي الى جواره في استكانة .. لكن

الخوف يخدش قلبها .. والحيرة تنهش اعماقها .. فالعجوز عاد يثرثر بكلامه المضطرب .. وكلما مرا بأحد لاحت الدهشة في عينيه .. والشارع ينتهي ليسلمهما الى شارع آخر .. لا يلبث ان يزيحهما الى ثالث .. والرابع ينفتح عليهما بامتداده واتساعه .. وقدماها تؤلمانها .. والدوار يناوش رأسها .. والعجوز لا يتوقف عن المشي .. ولا يريد ان يخلع الصمت من بين شفتيه ..

واستفسرت بتردد :

ـ هل بقي كثير ؟ ..

وادار لها رأسه :

ـ لماذا انت متعجلة ؟ .. الا يهمك ان تجدي ابنك ؟ ..

وبسمة تتكور بين شفتيه :

ـ ما دمنا خرجنا معا فسوف نجده ..

ولاذت بالصمت ..

وعاد العجوز يتكلم وهو يرمقها بطرف عينه :

ـ قالت نفتيس لايزيس سوف اخرج معك لنجمع اشلاء ايزوريس واكد لها حورس الكبير انه ذاهب معهما هو الاخر .. ومع ذلك لم يذهبا معها .. بقيا في المدينة ينظمان مرثيتهما في ايزوريس .. ويؤكدان وهما يبكيان انه سوف يعود .. ولو كانا صحباها لتغير الحال ..

واوضح وابتسامته تتسع لتشمل كل قسمات وجهه :

ـ لا تحسبي اني اريد شكرك لمرافقتي لك .. فانت طيبة تستحقين كل خير ..

وفصل الصمت بينهما والشرود .. وبغتة ، هتف العجوز بفرح طفلي :

ـ لقد وصلنا ..

ردتها زعقة العجوز الى انتباهها .. فجعلت تتلفت حولها بفزع .. خلفا المدينة وراءهما .. وصارا على مشارف صحراء تغيب اطرافها في البعد .. والشمس تسترت خلف سحابة قاتمة ثم انسلت منحدرة الى المغيب .. وغبشة المساء تحاصر الافق .. تلملم اطراف الصحراء .. ودائرة الرؤية امام عينيها تشح وتضيق ..

وصرخت وهي تتراجع عن العجوز خطوات :

ـ لماذا جئت بي الى هنا ؟ ..

واقترب منها العجوز وهو يغمغم بصوت حنون يكاد لا يسمع :

ـ لتبحثي عن ولدك يا ابنتي ..

وتقاطرت الدموع من عيني العجوز .. وتضاءلت البسمة التي تتكور بين شفتيه .. وبصوت مخنوق عقب :

ـ هؤلاء الاولاد انا اعرفهم .. يعشقون الخلاء ليسمرون على هواهم ..

وجذبها من ذراعها .. وانحرف ناحية اكوام الزبالة والنفايات ثم قال :

ـ انظري .. اقول للكناس الابله ان اكوام النفايات سوف تزحم الصحراء .. ويوما ستهب رائحتها النتنة على المدينة فيضيق السكان ويسخطون عليك وعلى رئيس مدينتك .. فيقول المهم نظافة الشوارع حتى لا يستاء الناس .. يتصور الناس لا يشمون الا القريب فقط ..

وانصت برهة ثم سألها :

ـ هل تسمعين شيئا ؟ .. يبدو انهم خلف هذا التل ..

واضاف وهو يمط بسمته فوق شفتيه :

ـ هؤلاء الاولاد العفاريت انا اعرفهم .. يحبون الانزلاق فوق التلال الرملية .. يا لهم من صفار اشقياء .. يتعبوننا معهم ..

وتحول يتسمع باهتمام في كل اتجاه ، ثم قال بصوت خفيض :

ـ يبدو انهم راجعون .. وحتى لا يروننا فيرتدون مخافة ان نضربهم لتأخرهم في العودة .. فتعالي نختفي هنا .. ادخلي واحدة من هذه الكومات .. هيا اسرعي .. انها نفاياتنا فمما تقرفين ؟ .. هيا .. هيا ..

ولم يتوان العجوز .. دفع بها داخل واحدة من الكومات .. واسرع يضيف الى الكومة مزيدا من الكومات الاخرى .. واوشكت النفايات ان تغطي كتفيها فصاحت :

ـ كفى .. سوف اختنق ..

لم يعبأ العجوز بصياحها، واستمر يحمل النفايات بساعديه من الكومات الاخرى ، ويلقي بها فوق الكومة التي دخلتها ، وهي تصرخ وتتوسل .. وضاق العجوز بصراخها ، فانفجر زاعقا بغضب :

ـ كان واجبك ان تفعلي ذلك بنفسك فاحمدي لي اني اعاونك ..

وارتفعت النفايات حولها حتى غطتها .. وطفق صراخها ينقلب الى حشرجة .. واستغاثاتها تتحول الى انين مكتوم .. وتوقف العجوز ، واخذ يدور حول الكومة ، والبسمة المتكورة تهتز بين شفتيه .. ثم انطلق راكضا تجاه المدينة ، وهو يهلل :

خرجت ايزيس وجمعت اشلاء ايزوريس .. فقام من بين الاموات .. وهو عائد اليكم بالخلاص .. اخرجوا لتلقوه .. واخرسوا هذا الصخب لتسمعوا صوته .. لتسمعوا منه كلمة العودة ..

ولم يزد الناس في الشوارع عن التطلع اليه باسمين ، وهو مستمر في جريه اللتاث ، وصراخه المتهدج ، وقرب الرصيف الذي اعتاد ان يقتعده ، كان صوته قد بح ، والاعياء تمكن منه ، فاتكأ على الاسفلت ، اسفل الرصيف ، قرب كومة صغيرة من النفايات .

القاهرة اسماعيل علي اسماعيل

امـرأة

★

هـي في المنـع والعطـاء سـواء كبريـــاء تعلــو بهــا الكبريـــاء
دائما فـي متانـة الشجر الصلـب ، وان زانهـا الشـذا والـــرواء
واستظلت بهـا الفصـول ، وغنتهـا الروابي وعانقتهـا السمـاء
تحكم الـرأي في الصواب على الحق وتحيـا فـي رأيهـا الاراء
هي تـابى ان يجنح الفكر في الظن وتابـى ان تشتهي مـا تشـاء
هي مثل المرآة ترتشـف اللـون وتبقـى الـوانهـا السـمحاء
هي شيء من كل شـيء على نفسي ،كنفسـي ، امـانـة ووفـاء
ودعـاء اذا تجلـى دعـائـي ونـداء اذا تعـالى النـداء
تقطع العمر في الشجاعة والحمد وربي : أنـت النـدى والسـخاء
يتعرى الايمـان في حلـل الصبر ، ويرضى الرضى ، ويحلـو الجفـاء
هـي كالافـق مشرف وبعيـد هي كالغـاب وحشـة وانـزواء
هيكل مـن هياكل الجبـل العالـي ، تهادى منـه عليـه الضيـاء
نعمة من مواسـم الله في بيتـي وخيـر مـن خيـره معطـاء
كان قلبي كصخرة القبر اشباحا عطاشـا تـنز منهـا الدمـاء
شـاردا في مفارق الليل والشك ، وداء يمـوت فيـه الـدواء
شـهوة اثر شـهوة وشـباب كاد يفنـى فـي بردتيـه الرداء
جائع فـي كؤوسه ظمـا الهـم ولاه تلهـو بـه الخيـلاء
تسحب الـدرب عمره في مدى الدنيـا وتمحو الوانـه الظلمـاء
يتخفـى فـي فقـره فتـرى الفقر عليـه كـانـه الاثـراء
همـه كـل همـه ان تـواري الليل فيـه علـى السرى الصهبـاء
كان، حينا كفرحة الدار في الصحو وحينا تهـوي بهـا الاهـواء
وتهـادى فمـا رواه التهـادي وتوارى فمـا شـفاه الخفـاء
اخت : ايـن الاخصـاب في الورق اليبس ، واين المنى ، واين النماء
اخت: ضاعت منه منـاهل عينيه وضاع الصبى ، وضـاع العـزاء
ثـم مرت كمـا يمر بـه الحلم وعـادت كمـا يعـود الرجـاء
عطفت عطفة القـوي علـى الود وحنت كمـا يحـن الحـداء
ثم قالـت لنـا الفضـاء وما في الارض الا جناحنـا والفضـاء

الياس خليل زخريا

احسان النمر ـ جميل سعيد
شكري حرامي ـ نعمة الصباغ

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ احسان النمر

القول الذي آمن به « احسان » وجعله ديدنا وشعارا قول ابن خلدون : « والتاريخ يوقفنا على أحول الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا ! » .

ولد « احسان » في نابلس بفلسطين عام ١٩٠٥ ونشأ في اسرة محافظة اشتهرت بالتدين والامانة ، ودخل المدرسة الابتدائية فالاعدادية، ومال بكليته الى دروس الاجتماعيات والحساب . وفي الحرب العالمية الاولى حمل البندقية ، واولع بالتمارين العسكرية ، واستوعب الشيء الكثير عن « المسالة الشرقية (١) » بعد تحرر الدولة العثمانية من قيود الامتيازات الاجنبية ، واخذت المعاهد العلمية تشرح للطلاب سوء ما تبيته الدول الاوروبية للدولة العثمانية بغية تصفيتها بوصفها دولة الخلافة الاسـلامية .

وبعد ان هدأت نامة الحرب العالمية الاولى اصبحت فلسطين بلدا خاضعا للعدو المحتل ، وربطت بمصر بالقطار السريع ، واعتبرت كأنها مديرية من مديريات مصر ، واستؤنفت الدراسة على اساس البرامج المصرية ، واقبل الطلبة الفلسطينيون على الدراسة في الكتب التي يتداولها الطلبة المصريون ، وفي هذا العهد عكف « احسـان » على الدراسات العربية وركز على أمهات التاريخ العربي والاسلامي ، ودخل « كلية النجـاح الوطنية » بنابلس ومنهـا الى « الكلية الوطنية » بالشويفات ، وأقبل على دراسة ألنهضة السلفية في نجد ، وجـدد عقيدته على الاسس السلفية التي وقف عليها في كتب علمـاء نجد ولا سيما الشيخ سليمان بن سمحان النجدي، ومال نحو المقالات والمؤلفات التي صنفها بعض مفكري العرب والمسلمين كطبائع الاستبداد وام القرى للكواكبي والاسلام روح المدنية للفلاييني وخاطرات جمال الدين الافغاني ومؤلفات المنفلوطي وبعض فتاوي ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ودأب على دراسة القرآن الكريم تفهما ، وتطبيقا على النظريات العلمية وبذلك تسلح بثقافة اسلامية ودرس مقدمة ابن خلدون وكليلة ودمنـة وتهذيب الاخلاق لابن مسكويه والادب الكبير لابن المقفع .

وبعد زوال الحكم التركي عن البلاد العربية وقعت فلسطين فـي الفخ الذي نصبه لها الاستعمار البريطاني وسعى المستعمر الى تهويدها ، فقرر « احسان »ان الجهاد واجب مقدس على كل عربي ومسلم ، وأخذ يشجع على هذه الفكرة بين رفاقه . وبتخرجه من « الكلية الوطنية » بالشويفات اشترك في المظاهرات والاضطرابات التي نشبت في فلسطين عام ١٩٢٩ وبد سنتين منها خرج بمظاهرة في نابلس ضد المستعمر فحكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة مدة ثلاثة شهور .

واثر اكتشاف الهجرة اليهودية غير المشروعـة لفلسطين تـنادى شباب فلسطين الى تأسيس « منظمة حزب الشباب » فقام المترجـم له مع بعض رفاقه بفضح ألهجرة اليهودية غير المشروعة ، وقررت المنظمة حراسة الحدود فاصطدم شباب طولكرم بشباب اليهود في ناتانيا فهبت البلاد واضربت وقامت بمظاهرات دامية في عام ١٩٣٣ .

ودعا « احسان » الى تأسيس جمعية اطلق عليها « جمعية الهداية الاسلامية» ، فآمن الشبان المنتمون اليها بالثورة ، وطفقوا يتمرنون على السلاح والقاء المتفجرات على الدوائر الحكومية ابان الاضراب الفلسطيني الشـامـل ! .

وليشارك في الجهاد خرج الى الاردن ودعا الى دخول القائد فوزي القاوقجي وجيشه الى فلسطين ، ولحراجة الموقف أنتقل الى دمشـق وشجع على مساعدة الثورة الفلسطينية حتى انتهاء الاضراب الفلسطيني الشهـير .

وقبل أعلان قرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧) دعا الى تأسيس حزب سياسي اسماه « حزب التقدم العربي الفلسطيني » وبعد ان تأكد مـن ان قرار التقسيم سيوضع موضع التنفيذ اعتزل السياسة .

وبالرغم من عزوفه عن السياسة ظل يعمل لنصرة المغرب العربـي في كفاحه ضد المستعمر ، واسس مع بعض رفاقه مدرسـة وطنيـة لتعليم الطلاب الذين حرموا من التعليم في المدارس الاميرية ، ودأبوا على عملهم القومي هذا الى ان اسست الحكومة مدرسة لاولئك المحرومين.

من آثاره القلمية : نشر « احسان » عشرات من المقالات السياسية في صحـف « الصراط المستقيم » و « الكرمـل » و « اليرمـوك » و « الجامعة الاسلامية » و « الحياة » المقدسية و « الدفاع » . واقبل على نشر البحوث التوجيهية والمقالات التاريخية في مجلة « الفتـح » و « مجلة الازهر » و « التمدن الاسلامي » الدمشقية و « مجلة الحج » المكية و « الحياة » البيروتية و « هدى الاسلام » الاردنية و « الصراط المستقيم » البغدادية . ومن الكتب التي صنفها :

١ ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء (في جزئين)
٢ ـ العربي الكامل (في خمسة اجزاء)
٣ ـ امراضنـا ومشاكلنـا
٤ ـ نـوادر الاغـاني
٥ ـ السياسة العربية الرشيدة
٦ ـ بطولات الجزائريين
٧ ـ تاريخ الحمدانيـين
٨ ـ شخصية المصطفى (صلى الله عليه وسلم) .

نموذج من شعره : نظم « احسان » مقطوعة شعرية صور فيهـا معنى لم يتناوله سواه من الشعراء هو السكر المعنوي :

اسائل هل صحا قلبـي وثابا ... فكم أنسى بسـكرته الصوابـا
وقـد جربت انقاذي وصحـوي ... فهـام القلب لا يرجـو ايـابـا
فيسكرني انين الصـب شوقـا ... وأذهل مـا شـكا حبـا وهابـا
ويسحرنـي الجمـال اذا تناهى ... وانفـر ان أتـى شـيئا معـابا
جمال الروح يسكر كـل صـب ... جميل الروح يستهوي الصحابا
لـن فتـن تزيد على المزايـا ... فتسحرنا فـلا نبـدي جوابـا
اذا ابتسموا كان الشمس ضاءت ... وان نطقوا جلـوا عنـي مصابـا

ولا تبخس لحسن الصوت حقا ... اذا حـن الجميـل لهـا عتابـا
على الـم تطوقـه جـراح ... فأحرقنا مـن الشكوى وذابـا
وصيرنـا بمجلسـه بسـكارى ... ولم نشرب من الحـان الشرابا
ومن يخبل على طرب وشـوق ... فقد وفى الى النفس الحسابـا

وقد ظنـوا بسكر الخمر لهوا ... تجـرع للفتـى سـما مذابـا
ولو ذاقوا لسكر الشوق طعمـا ... لصار الصاب في فمهـم رضابا

فلست بشارب خمر الندامى   ولست بذائق منها حبابا
ولكن نشوتي مثل تسامت   الى العليا مفاخرنا حقابا
ولعت بها فلم أحفل بشيء   يطير لذكره غر أهابا
ومن ينشد ذرا العليا فاني   وجدت طريقها ملأى صعابا
فلم أر مثل نشوتها بنفسي   ولو مزجوا بها شهدا وصابا
تراني صاحيا لا شيء أشكو   وان حققت تعرفني مصابا
فذا سكر العلا من غير شك   ومن يخبر على علم أصابا

٢ ـ جميل سعيد

منذ شب عن الطوق وعجم عود الحياة ، وبلا مكر الناس وخداعهم ، وجنوحهم الى الشر ، ظل يدعو الى الخير والمحبة ويردد مع سلامه موسى قوله :

« ان الرجل الطيب هو الذي يعطي الدنيا اكثر مما يأخذ منها ! » .

ولد « جميل » في بيت المقدس عام ١٩٠٦ وقام دستوره في الحياة على كسب الرزق بعرق الجبين وطلب العلم مهما كانت الظروف والموانع ، ونظرا للظروف القاسية التي حملتها الحرب العالمية الاولى في طياتها دخل المدرسة الالمانية في حي الدباغة بالقدس وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين عام ١٩١٨ انتقل الى مدرسة المطران وبعد تخرجه منها وجد ان ظروفه المادية لا تساعد على مواصلة تحصيله الجامعي فزاول التدريس ست سنوات ، ولقد أفاده عمله هذا خبرة بالناس ومعرفة بالحياة . وعكف على المطالعة في حقول الادب والاجتماع والتربية ، وبعد ان ادخر بعض المال قصد بيروت والتحق بالجامعة الاميركية وامضى فيها ست سنوات ممتعة وبعد تخرجه عام ١٩٣٢ بدرجة بكلوريوس آداب وشهادة التربية عاد الى فلسطين مدرسا في دائرة المعارف العامة وعين في ثانوية يافا ، وبعد خمس سنوات من عمله هذا نقل استاذا الى الكلية الرشيدية بالقدس وامضى فيها عشر سنوات .

وبعد ان دكت فلسطين بالنكبة الاولى (١٩٤٨) انتقل الى عمان ومنها الى بيروت، وقصد لندن كمدرس للغة العربية وكطالب لعلم النفس في جامعة كمبريدج وحصل على شهادة .M. L. I. H وهي تعادل شهادة الماجستير الفرنسية ، وما لبث ان عاد الى بيروت وعين مدرسا في الجامعة الاميركية ثم عاد الى الضفة الغربية وعمل مدرسا في كلية دار المعلمات بنابلس ، التي أسستها هيئة الاغاثة الدولية بمساعدة منظمة اليونسكو ، وعاد الى بيروت ليعمل في قسم الترجمة والمعلومات في رئاسة وكالة الاغاثة (الاونروا) .

وفي عام ١٩٦٦ اعتزل العمل لمرض طارىء واعتكف في منزله ببيروت وعكف على المطالعة والكتابة .

من آثاره القلمية : نشر الاستاذ جميل عشرات من المقالات التربوية والتوجيهية في مختلف الصحف واذاع الاحاديث الادبية والاجتماعية . ومن الآثار القلمية التي وشتها ريشته المؤلفات التالية :

١ ـ اتجاهات الادب الانكليزي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
٢ ـ علم النفس في حياتنا اليومية (مترجم) ١٩٥٩
٣ ـ عقدة اوديب في الاسطورة وعلم النفس (مترجم) ١٩٦٢
٤ ـ مارك توين (مترجم) ١٩٦٥
٥ ـ كتاب تعلم الانكليزية عن طريق التلفزيون (جزآن)

نموذج من نثره : « في الادب العربي القديم قصة رجل لجأ الى بئر من خطر فيل هائج ، فتدلى فيها وعلق بغصنين كانا في سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر ، فاذا حيات أربع قد أخرجن رؤوسهن من جحورهن ، ثم نظر فاذا بقاع البئر تنين فاغر فاه ، ينتظره ليسقط فيأخذه ، فرفع بصره الى الغصنين ، فاذا في أصلهما جرذان اسود وابيض ، دئبا على قرض الغصنين ، وفيما هو في تأمله هذا أبصر كوارة بالقرب منه فيها عسل ، فذاقه وشغلته حلاوته ، والهته لذته عن التفكير في مصيره ، وتلمس الخلاص لنفسه . ولم يذكر ان قدميه على حيات اربع لا يدري متى يسقط عليهن ، ولم يذكر ان الجرذين دائبان في قطع الغصنين ، ومتى انقطعا وقع على التنين .. فلم يزل لاهيا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك !

هذه القصة تمثل حياة البشر احسن تمثيل ، فالبئر هي الدنيا الطافحة بالافات والشرور ، والحياة الاربع هي الشهوات المتأججة في الجسد ، والغصنان هما الاجل او حياة الانسان على الارض التي لا بد من انقطاعها . اما الجرذان الاسود والابيض فهما الليل والنهار الدائبان في افناء الاجل ، واما التنين فهو المصير الذي لا بد منه ، اي الموت . وبين هذه الاخطار كلها يتلهى الانسان بالحلاوة العابرة التي ينالها من طعام وشراب وشم ولمس ، يتلهى بها ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن الهدف الذي ولد في هذه الحياة من أجله ، وهو معرفة الحقيقة والسير بمقتضاها ! » .

٣ ـ شكري حرامي

ظل الشعار الذي آمن به شكري حرامي طيلة عمله المتواصل في حقل التربية والتعليم قول برتراند راسل :

« يجب على الناس ان يقلعوا عن استعمال القوة ، وان المرء يجب ان يتوغل في العلاقات البشرية الى صميم الشعور بالوحدة عند الناس ! » .

ولد « شكري » في بيت المقدس عام ١٨٩٨ واستهل دراسته في المدرسة الالمانية بحي الدباغه ومنها انتقل الى كلية الفرير ليلم بالفرنسية ومن هذه التحق بمدرسة المطران وبعد ان حصل على شهادتها الثانوية انضم الى مدرسة الفرندز برام الله معلما ، وما لبث ان دخل الجيش التركي عام ١٩١٦ برتبة ضابط ومركز عمله بعلبك وبعد فترة عاد الى القدس والتحق باحدى الفرق العسكرية التركية كترجمان ثم نقل الى دمشق ومنها الى بئر السبع ووقع اسيرا في يد الجيش البريطاني وصدف ان كان قائد الفرقة التي أسرته استاذا له في مدرسة المطران فبعث به هذا الى رئاسة الاركان بيافا وبقي فيها حتى احتل البريطانيون حلب عام ١٩١٨ فنقل الى بلدة اورفه كضابط ارتباط بين الجيش التركي والجيش البريطاني وظل في وظيفته هذه حتى نزوح الانكليز عن حلب .

وخلال وجوده في الشهباء عرض عليه الاستاذ لويس زياده العمل مع الجيش الفرنسي كشخص يحسن خمس لغات حية هي : العربية والتركية والانكليزية والالمانية والفرنسية ، لكنه رفض هذا العرض وعاد الى القاهرة عام ١٩٢٠ ومنها عاد الى القدس وعين موظفا في دائرة المالية ، وفي عام ١٩٢٢ ترك عمله والتحق بدائرة المعارف العامة وعمل استاذا في الكلية الرشيدية .

وعندما شرعت السلطات البريطانية بفلسطين في احصاء السكان رفض الاسهام في هذا المشروع فاستغنى المسؤولون عن خدماته وعين استاذا للتاريخ في مدرسة المطران وظل في عمله هذا حتى عام ١٩٢٦ .

وفي عام ١٩٢٧ قصد الولايات المتحدة والتحق بجامعة انديانا ، وحصل منها على درجة بكلوريوس آداب وكانت الاطروحة التي قدمها تدور حول العصور الوسطى ، وسرعان ما عاد الى فلسطين وعين استاذا للتاريخ في مدرسة المطران من عام ١٩٢٨ ـ ١٩٣٧ .

ونظرا لخلاف نشب بينه وبين المطران غراهام براون المسؤول الاول عن مدرسة المطران ترك هذا المعهد الاجنبي واسس في بيت المقدس مدرسة وطنية اسماها « مدرسة الامة » ، وكانت في الواقع « مصنعا للرجال » وظل يؤدي رسالته التربوية في صدق واخلاص من عام ١٩٣٨ ـ ١٩٤٨ وفي عام النكبة الاولى (١٩٤٨) استولت اسرائيل على هذا المعهد القومي فرحل « شكري » الى بيت لحم ونقل « مدرسة الامة »

الى قصر جاسر الشهير . وفي عام ١٩٥٧ اختار قطعة ارض في بيت حنينا (احدى ضواحي القدس) وانشأ عليها « كلية الامة » وما زال يؤدي رسالته للامة التي تحدر منها في هذا « المصنع القومي » .

من آثاره القلمية ، نشر « شكري » مقالات تجمع بين التربية والتوجيه وكتب مقالات في جريدة « اللهب » لصاحبها الاديب المرحوم حنا سويدا في بيت المقدس عام ١٩٣٦ . ومن الاثار التي وقفنا عليها كتاب « المختصر في التاريخ » وقد نشره في عام ١٩٣٦ .

نموذج من نثره : « ليست الحياة الا كفاحا متواصلا وعلى المرء ان يعد له العدة ولا ينتظر جني ثمار النصر بسرعة .

والحياة في يقيني حرب متصلة الحلقات بين الامل بالنجاح والخوف من الفشل . وكلما كانت الظروف المحيطة بالانسان في كفاحه شاقة ومستعصية كان التغلب عليها اعظم .

وليعلم القارىء ان قطع المسافات الشاسعة في غضون ايام واسابيع لا تجعل من الانسان بطلا انما قطعها في دقائق معدودة تجعل منه ذلك البطل ! .

ومن صمد لخصم واحد كمن صمد لاخصام كثيرين ، ولو افضى هذا الى فشله في التغلب عليهم . ومن خطط لنفسه وعمل ثم فشل ولم يعد يخطط ويعمل فهذا لا يصنع المعجزات ولا يؤمن بما أعد لكفاحه منذ البداية .

وفي يقيني ان بلدا كفلسطين الجريح تألبت عليها قوى الشر والطغيان لا بد ان تنفض عنها غبار الاتكالية واللامبالاة والتغني بالماضي وبما صنعه الاوائل من اهلنا ، ولا بد ان يعود شعبها عن عبادة الاصنام الى حب الوطن ومن الخيال الى الحقيقة ، ولهذه الاهداف عملت وسأظل أعمل ! » .

٤ ـ نعمه الصباغ

ولد في الناصرة بفلسطين عام ١٨٨٦ وأنهى دراسته الابتدائية في مدرسة البروتستانت بمسقط رأسه ثم انتسب لمدرسة تابعة للجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية وبعد ان اكمل دراسته فيها أنتقل الى « السمنار » (٢) ونال شهادته عام ١٩٠٤ . ولقد شجعه استاذ العربية فيها المرحوم جبران مخائيل فوتيه (من بيروت اصلا ومدير مدرسة «الثلاثة الاقمار» في بيروت) على درس العربية والتعمق فيها .

وابان وجود « نعمه » في « السمنار » قدم الناصرة طلاب من حمص ولبنان للانتساب الى هذا المعهد الروسي وفي عدادهم : نسيب عريضه ومخائيل اسكندر (حمص) ومخائيل نعيمه (بسكنتا) وقد أرسله الى الناصرة المعلم خليل بيدس ، مدير المدرسة الروسية في بسكنتا سابقا ، ليلتحق ب « السمنار » وزوده برسالة لقريبه المترجم له وأوصاه خيرا بالصبي الغريب لضعف بنيته وبعده عن اهله .

وفي عام ١٩٠٤ عين « نعمه » مديرا للمدرسة الروسية الابتدائية في بلدة منياره (عكار) وامضى فيها مدة خمس سنوات ، وقد زود « السمنار » في الناصرة بفوج من طلابه المنياريين .

وفي عام ١٩٠٩ نقل مديرا للمدرسة الروسية الابتدائية في كسبا (الكورة) وخلال فترة عمله هذا قدم لبنان من بطرسبرج المفتش الاول في المدارس الروسية فسر بالنتائج الباهرة التي لمسها في طلاب مدرسة كسبا ، وتقديرا لجهود الصباغ نقله مديرا للمدرسة الروسية في اميون (الكوره) وفيها اقترن بفتاة اميونية وظل يزاول عمله الى عام ١٩١٤ وفي هذا العام الغيت الامتيازات الاجنبية من الدولة العثمانية .

وفي عام ١٩١٨ عاد « نعمة » الى الناصرة وعين مديرا للمدرسة الارثوذكسية بالناصرة . وفي عام ١٩٢١ التحق بمعارف حكومة فلسطين وعين مديرا للمدرسة الاميرية في شفاعمرو ونقل بعدها الى « الكلية الرشيدية » بالقدس ثم نقل مديرا للمدرسة الاميرية في بيت لحم فمديرا للمدرسة الاميرية بالناصرة . وظل على رأس عمله هذا الى ان أحيل على التقاعد في عام ١٩٤١ .

وفي عام ١٩٤٥ عين مديرا لمدرسة الكاثوليك الاسقفية ولكلية البنات لراهبات الناصره في حيفا وظل يعمل في هذين المعهدين حتى عام ١٩٤٨ . وبعد حلول النكبة الكبرى بارح فلسطين الى لبنان وتولى ادارة القسم العربي في ثانوية بشمزين (الكورة) وفي عام ١٩٥١ عين استاذا للادب العربي في كلية طرابلس الشام وظل يعمل فيها مدة ١٢ عاما الى ان نزح الى بيروت ! .

باكورة شعره : كان اول شعر نظمه شاعرنا « نعمه » مقطوعة هنأ بها السيد سباسكي ، ناظر المدارس الروسية في طرابلس الشام ، ومطلعها :

صاد قلبي يا عذولي طرف « مي »   فهمى الدمع دما من مقلتي
خلت ان الدمع يطفي نارها   غير ان الدمع زاد النار شي

واول صحيفة خصها الصباغ بشعره عام ١٩٠٢ مجلة « كوردوبا » بالارجنتين لصاحبها المرحوم شبلي ناصر رزق فمجلة « الفنون » بنيويورك لصاحبها المرحوم نسيب عريضه فمجلة « النفائس » بالقاهرة لصاحبها المرحوم سليم قبعين فمجلة « المباحث » بطرابلس الشام لصاحبيها جرجي وصموئيل متى فمجلة « النفائس العصرية » ـ يوم كانت تصدر في حيفا اولا ـ لصاحبها المرحوم خليل بيدس فمجلة « الزهراء » بحيفا لصاحبها جميل البحري فمجلة « المعارف » ببيروت لصاحبها المرحوم وديع حنا فمجلة « الاخاء » بالقاهرة لصاحبها المرحوم سليم قبعين الى غيرها من الصحف الفلسطينية .

وفي عام ١٩٠٢ جرت مناظرة شعرية بين الصباغ وبين سليم ناصر رزق ، الشاعر الفلسطيني ، وكان موضوعها « الادب القديم والادب الجديد وأثرهما في المجتمع » وقد نشرت تلك المناظرات على صفحات مجلة « كوردوبا » الارجنتينية .

نماذج من شعره : خلع نعمه الصباغ على أدبنا المعاصر (صورا) شتى من منظومه ودونك (لوحة) وشاها الصباغ بتلاوينه واصباغه :

بين المغاني في السحر   غنى الهزار
فشاقني عرس الشجر   والقلب طار
وشارك السمع النظر   فيما أثار
لو ان « معبدا » حضر   لكان حار

وصفقت ايدي الغصون   تحبيبا
وفتح الورد العيون   لما صبا
وارسل القطر الهتون   تصبيبا
ففضح السر المصون   ريح الصبا

هذا الى ذاك الحبيب   طاب العناق
وليس من يخشى الرقيب   من الرفاق
والصبح باللحن المذيب   حتما أفاق
فنبه الغصن الرطيب   قبل الفراق

يا وقفة بين الزهور   مع الملاح
فالروض بالطير فخور   يتلو الصداح
يا حسنه شدو الطيور   والنور لاح
بادر الى نهب السرور   عند الصباح !

(١) ـ مصطلح عام يطلق على العلاقات السياسية بين بعض الدول الاوروبية وبين الامبراطورية العثمانية ، ابان القرنين ١٨ و ١٩ واوائل القرن العشرين . (٢) كلمة روسية معناها « دار المعلمين » .

ويبدو ان شاعرنا الصباغ هام في صباه ب «ليلى» ... و «ليلى» هي عروس احلام كل شاعر .. فراح يناغيها بشعر يفيض رقة وعذوبة :

« ليلى » الزهور تبسمت   لما بدت منك ابتسامه
« ليلى » الغصون ترنحت   لما هززت لهن قامه
« ليلى » الطيور ترنمت   لولاك ما سجعت حمامه !
والبدر أغضى مذ تطلع انه أمسى قلامه !
« ليلى » النجوم تغامزت   لما رات في الخد شامه
والورد يا « ليلى » انطوى   خجلا ولم يبرح كمامه
والنرجس الولهان يا   « ليلى » أثرت به هيامه
والياسمين روى الصبابة والهـا يبدي غرامه
« ليلى » البلاغة قصرت   لما نشرت رؤى القسامه
فأخو الفصاحة ذاهل   حيران لا يبدي كلامه

أنت الهوى لفتنتي   سيظل عندي للقيامه
« ليلى » ارحمي صبا بكى   والدمع أزرى بالغمامه
« ليلى » السقام أذابه   والوجد قد أورى سقامه
لولا الانين وحرقة   لم يدره من كان رامه

وأمض شاعرنا تبرج فتاة القرن العشرين فراح يسائلها بحدة وانفعال :

لمن الشعور تصففين ؟   والحاجبين تزججين ؟
لمن الخدود توردين ؟   لمن الشفاه تحمرين ؟
لمن العيون تكحلين ؟   والظفر منك « تمنكرين » ؟
تلك الحياة زرية   أواه مما تفعلين !

قصرت ثوبك لم ترا   عي حشمة لو تعلمين !
تمشين في الاسواق لا   تخشين الحاظ المئين
سكرى بلا خمر يميـ   ـل بك الصبا تترنحين !
للزوج أنت وجدت لا   لجماعة متعطشين !
ما هكذا كنا ... ولا   كانت نساء المتقين
كان الحياء جمالنا   يا حسنه في الغابرين
يا بنت حواء اتقي   أحكام رب العالمين !
ما أنت الا زينة   للبيت لا للمشتهين
فاذا اتشحت بعفة   كنت الهداية للبنين !

وظل الصباغ يهاجم مباذل فتاة العصر ... وقد خرجت بزينتها على حد الحشمة والوقار :

ما لي اراها جاريه   بين فتى وجاريه
ترنحت تهاديا   في الحي نصف عاريه
تبرجت ناعمة   في القلب نار واريه
كأنها في خطوها الطاووس تعطو زاهيه
والزي قد صرفها   عن الصفات العاليه
تريد منا أدبا   ومنه راحت خاليه
وتقتضينا حشمة   وتلك عنها نابيه
بالصدر شنت غارة   على البدور الساريه
تمشي بنا مرتجة   مهتزة وغاويه
في شفتيها قرمز   ينعي ذهاب العافيه
وحسنها مصطنع   في وجهها بداليه
زينتها حذاؤها   وحمرة وغاليه
لو عقلت لظهرت   بخيرها مباهيه !

لكن فتاة القرن العشرين ندت عن الحياء .. وأسرفت في تبرجها ... وأوغلت في بهرجها ... فحمل الصباغ على استهتارها هذا :

قصرت سربالها يا ويحها   فاذا مرت بنا « الظهر » ظهر
وتراها قطعت عن يدها   كمها « فالابط » في مرمى النظر

ويح عصر بنت حواء به   قد تعرت فأبانت ما أستتر
فترى الشبان عافوا زيجة   انهم قد فقدوا ذات الخفر !
لا تلوميهم اذا ما نفروا   وارحمي نفسك من وقع الخطر

ولم ينس الصباغ أمه من شعره ... فلقد صور حنانها وطيبة قلبها ، وصفاء حبها ، وسهرها على وليدها والدموع تسح من عينيها بقوله :

بالام لا « بسعاد » طاب تغزلي   وأنا الذي بهوى الامومة مبتلي
ان الحنان بقلبها لا صدر من   طمعت بحب لاح حتى ينجلي
حب الامومة لا يزول الى المدى   اما « سعاد » فحبها بترحل
فاذا الجمال ذوى ذوت بذبوله   واذا الغنى ولى تنكر ذاك لي
والام مهما كان بي من عاهة   فهيامها بي في المزيد الاكمل
واذا اضطربت أصابها قلق وما   تحيا لتسعد بل لتسعد موئلي
ومقامها عندي بأعلى رتبة   فكأنها فوق السماك الاعزل
تقديسها فرض علي عرفته   منذ الطفولة في الكلام المنزل
يا أم حبك راسخ بجوانحي   وهواك حل بها بأرفع منزل
فاذا كشفت عن الفؤاد وجدته   مطبوعة آياته لم ترحل
ان أنس لا أنس التضرع والبكا   في النائبات تساق للرب العلي
تقضين في السهر الممض حزينة   ليلا أكون به بداء معضل
والدمع من عينيك سح بهدأة   كيما انام براحة وتهلل
وتضرعاتك لا تطيق نهاية   وتأوهاتك من عميق توسل

يا أم أنت مثار كل فضيلة   ولأنت في دنياك أكرم مفضل
أهواك ، هيهات السلو عن الهوى   فكأنني بعبادة المتبتل
وعلي دين ان أقدم طاعة   كيما أنال جزاء ربي الامثل
يوم الامومة قد أبنت لي الهدى   فأتيت اسعى مشية المستعجل
لأصوغ حمدا للتي من قلبها   غذت فؤادي والحنان مسربلي

« نقل فؤادك ما استطعت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الاول »

وعاش شاعرنا الصباغ مؤملا فرج الله .. متطلعا الى ثروة تنفس عنه الكرب وتضاعف في سعادته ، وراجيا ان تغدق السماء عليه بخيراتها ... ليقضي بعض عمره في صفو وهناء وهدوء وطمأنينة !

وصور ما اعتلج في صدره من أمان بخطاب شعري مفتوح وجهه للرحمن الرحيم :

أسعى وجهدي فاشل   وأراه زلزلني « الطفر »
ليلي يطول على الطوى   وأبيت جياش الحذر
غيري مصيب عيشه   والعيش عني قد نفر
ما للزمان معاندا   أواه من ظلم القدر !
ربي ... امرت تصبروا   فصبرت أرتقب الظفر
وطمعت في نيل الغنى   فاذا الغنى أعمى البصر
فطفقت أشكو لوعة   ظهري من البلوى انكسر
والصبر مثل مذاقه   مر وتعذيبي أمر
هم وغم فيهما   بالفقر طال المستقر
ما زفرة الخنساء في   صخر سوى قلبي انفطر
ربي أنلني رحمة   مثلي لفضلك من شكر
ربي ارحم العبد الذي   يشوى على نار سقر
ويكاد قبل أوانه   يقضي وتطويه الحفر
فالفقر انشب ظفره   والفقر اقسى من غدر
رباه لجت كربتي   واريد تعجيل السفر
وتقول صبرا لينجلي   عنك البلا ولو استعر
وصبرت حتى لم اجد   في مشربي الا الكدر
ان كان بالصبر الغنى   فأنا الصبور أبا البشر
صبري تناقله الورى   « أيوب » مثلي ما صبر !

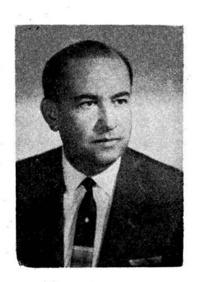
عمان ـ الاردن

البدوي الملثم

الى طفل الامس

فـؤاد الخشـن

الشويفات ـ لبنان



أيهـا المنشـــد
يا مـن شـعره المهموس
مـن صحو السماء
« الشويفات » تناديك
فـلا تبطىء عليهـا
انت وجه الخير ، قيثار الجمال
طيف آدونيس للارض يعود
وبكفيـه عنـاقيـد
وقمـح وورود ...

عـد مـع الحـب اليهـا
كل شيء ينعش النفس
ويغنيهـا
سـتلقاه لديهـا
فهنا ، فـي الظـل .. في الوحدة ..
فـي هـذا الصفـاء
ربمـا عاد الى نفسـك
بعـد اليـاس ،
شيء مـن رجـاء !

أيهـا الريفـي
يا ابـن الصحـو
يا طفـل الخيـال
ظـل عصفورا طروبا ....
او فراشـه
ظل في احرفـك الخضراء
للناس البشـاشـه
وبليل الهـم للمهموم
ضـوءا وانتعاشـه ...

والمثـال
ذلـك الوهـم الذي صفت
من التوق الى وجه الصفاء
لا تدعـه ...
خله دفءا لباقي العمر
في بـرد الشـتاء !
املا حلـوا يثير الشوق ..
ايماءا بعيـدا
وتـرا للنغـم العذب
وقيثـارا فريـدا
وابـق بالوهـم
وما يبدعه الوهم ، سعيدا ...

قصة رجل موهوب

بقلم سامي الكيالي

قصة اليقظة العربية التي بدات على يد اعلام من الكتاب والمفكرين في القرن التاسع عشر – قصة كتب فيها المطولات فلا نعيد سيرتها .

فقد كانت الحياة الفكرية ، في الفترة الطويلة التي عاشتها في العهد العثماني – كانت موؤدة لا تجد لها اي متنفس .

وكان الناس يتخبطون في تيه الجهالات وقد ورثوا كل رسوبات عصور الانحطاط . وكانت اللغة التركية لغة الدولة – هي الطاغية ..

وقد اتاح الله للامة العربية صفوة من الشخصيات البارزة انصرفوا الى تراثنا القديم يبحثون ذخائره بجد واخلاص ، والى ثقافة الغرب ينهلون من معينها بشوق وصبر ، فزاوج بعضهم بين الثقافتين ، واهابوا جميعهم بأبناء الوطن العربي ، في شتى اقطاره ، ان يفيقوا ، وان يسيروا في الطريق السوي الذي سلكته الامم التي قطعت شوطا بعيدا في ميدان العلم والمعرفة .

والتاريخ الادبي يذكر العشرات . ولكل واحد طابعه المتميز .. في الادب والثقافة والنضال القومي والوعي الاجتماعي ، وقد اتخذوا الاصلاح ديدنهم ..

وكان الادب ، وكانت المدارس ، وكانت الصحافة سبيلهم لرفع الغشاوة عن العقول ، ووضع البذور الصالحة لحياة جديدة تحياها الامة العربية ، وتكونُ اداة قوية لبعث ماضيها وتكوين ذاتيتها .

ولا اعدد الاسماء فهم كثر : من مصر وسورية ولبنان وفلسطين والعراق ، جميعهم قد مهدوا الطريق لمن بعدهم ، وما هذه النهضة التي نقطف ثمراتها اليوم الا نتيجة تلك الاغراس التي زرعها اولئك الاعلام .

قدمت هذه التوطئة للحديث عن رجل اهملته الدراسات الادبية ، وكان ذا موهبة وانتاج غزير . وقد استطاع ان يترك طائفة من الكتب ذات اتجاهات مختلفة ، بين علمية وادبية ، فنية وتاريخية ..

جمع في ذاته شتى الصفات .. من الكهنوت ، الى التدريس ، الى الصحافة ، الى الخطابة ، الى الشعر ، الى العلم ، الى الفن – الى ما شئتم من ظواهر النبوغ .

لا اقول انه جمع المتناقضات بل اقول ، ان مواهبه توزعت على جميع هذه الميادين فأعطى كل ظاهرة قدرا من ذكائه وحيويته والمعيته ..

من قرية في اقصى الجزيرة السورية الى اكبر عواصم الغرب يقف خطيبا ، يحدثهم بلغتهم ، فيسحرهم ويهز مشاعرهم ..

يعيش مع الملوك والامراء فيحظى بعطفهم وينال رفدهم .

يكتب لهم ، ويترجم عن لغاتهم فيقدرون مواهبه ويكبرون نبوغه ..

نشأ في « ديريك» التابعة لمحافظة الحسكة ، وقد اطلق على « ديريك » اسم « المالكية » بعد تخطيط الحدود بين سورية وتركيا سنة ١٩٢٨ .

من تلك القرية الى دير الشرفة في لبنان يدرس العربية والسريانية والايطالية ، ومن بيروت الى روما لدراسة الفلسفة المسيحية من منابعها ولا يكاد يظفر بلقب دكتور في الفلسفة حتى يعود الى قريته مزهوا بما ظفر به ...

ويضيق بجو القرية ويسام رئيسا لطائفة السريان في بيروت ، فلا يكاد يتسلم مهام عمله حتى يؤسس مدرسة وينشيء مطبعة لنشر الكتب في اللغات العربية والسريانية والتركية .. كان ذلك سنة ١٨٦٣ .

وتلقى مدرسته كل نجاح ويقصدها طلاب العلم من جميع الارجاء ..

ويسير في نهجه المدرسي والكهنوتي .. ثم يقتحم ميدان الصحافة للتعبير عن ميوله ونزعاته الحرة ، ولا يكاد يقترب من نار السياسة ووهج الطائفية فيصطدم ..

وتضيق نفسه ببيروت ايضا فيقوم برحلة كبرى حول العالم ..

لقد ركب البحر سنة ١٨٧١ واخذ ينتقل من قارة الى قارة حتى استكمل دورة الارض في سنتين وسبعة شهور .. وربما كان اول سوري بل اول شرقي قام بهذه المغامرة ..

بعد هذا السفر الطويل ، وبعد ان رأى العالم بشتى الوانه واجناسه ، ومختلف بدائياته وثقافاته : ابيضه واسوده ، واحمره واصفره عاد الى بيروت متعبا .. ولكن كان اكثر نشاطا واوسع معرفة واكثر تجارب ..

وفي بيروت عاوده الحنين الى الصحافة .. وهي الميدان الفسيح لنشر آرائه وما اختزنه في ذاكرته من مشاهد وآراء .. فلم يكد يصدر مجلته وينشر آراءه حتى يصطدم ايضا ..

« .. اتفق في غضون ذلك ظهور مسألة تاريخية تتعلق بأصل ايمان احدى الطوائف فقال بعكس ما ترتأيه . ونشر مقالات اثارت فتنة كاد يذهب فيها قتيلا » .

وترك بيروت الى ليفربول . ومنها الى نيويورك

وفيلادلفيا حيث مكث بضعة شهور اطلع خلالها على الكثير من المظاهر العلمية ، ثم عاد الى لندن ليعمل في الصحافة من جديد .

فأصدر سنة ١٨٧٧ مجلته باللغتين العربية والانكليزية .. وربما كان اول صحفي عربي اجترأ على هذه المحاولة ...

وبدأ يسطع نجمه ، ولا سيما بعد أن نشر سلسلة مقالات في محاربة الاستبداد في الدولة العثمانية — في مجلته وفي جريدة « مرآة الاحوال » لرزق الله حسون .

واستطاع عن طريق الصحافة ، ثم الخطب التي كان يلقيها في المنتديات العامة ان يحظى بمقابلة فكتوريا ملكة بريطانيا .. وفتحت له هذه المقابلة الاتصال بأكثر من ملك وامير ، شرقيين وغربيين . اختاره سلطان زنجبار ان يكون وكيلا له مدة ثماني سنين . وقابل قداسة البابا في رومه مرتين . ووثق صداقته مع ناصر الدين شاه ايران ..

واختاره ولي عهد انكلترا الذي صار فيما بعد ملكا باسم ادوار السابع استاذا للغات الشرقية في دار الفنون التي انشأها الامير في لندن The Imperial Institute وتناول الطعام على مائدته مرتين . وكان على اتصال مع الميكادو امبراطور اليابان .. ومع ملك حيدر اباد ... وغيرهم وغيرهم .

ان قصته قصة العصاميين .. من قرية في اقصى الجزيرة الى اعظم عواصم الدنيا ، يعيش مع الملوك ، ومع الامراء يؤاكلهم ويشاربهم ، يحادثهم ويراسلهم ، وينال رفدهم واوسمتهم ، فان دل هذا على شيء فعلى النبوغ السوري الذي لا تكاد تتفتح مغاليق الدنيا امامه حتى يتبوأ اعلى المراكز .

ويتساءل القارىء الكريم من هذا الموهوب الذي انبتته ارض الجزيرة المخصاب ، ولن اضن بالجواب . وان كان في ظني ان الكثيرين من المتتبعين للحركات الفكرية قد عرفوه .. بل اوقن انهم عرفوا انني ارسم للعالم الاديب المؤرخ الدكتور لويس صابونجي صاحب مجلة « النحلة » .

وبعد ، فان قصته لم تنته ، وهي على جوانب شيقة من الحياة الفكرية ، وعلى جانب عظيم من الاهمية .

.. قيمة الانسان ، اي انسان ، فيما يتركه من اثر . سواء في ميدان الادب او الفن ، او العلم ، او كل ما يفيد البشر ويؤاخي بين الشعوب في تقدمها وتطورها الحضاري ..

وقد ترك الدكتور لويس صابونجي ، اكثر من اثر تدل على عمق ثقافته ، وامتداد افق تفكيره .. فقد انتج فيضا زاخرا من الكتب والرسائل في شتى ميادين المعرفة ، بلغته وبغير لغته .. وكان لمعرفته اللغات اثره في تبحره واطلاعه الواسع ..

ويذكر الذين عرفوه انه تعلق بدراسة عشر لغات احكم اصول سبع منها فقط وهي : العربية والسريانية والتركية والايطالية واللاتينية والفرنسية والانكليزية .

وحين نمر مرورا سريعا على بعض مؤلفاته وترجماته — في فترة كان الفكر ما يزال في الاقماط — نواجه موهبة ذات اشعاع مختلف الالوان .

فقد ترجم الى الايطالية اثني عشر كتابا من اشعار فرجيل ، وكتب كتاب « فلسفة ما بعد الطبيعة » واتبعه بكتاب عنوانه « تهذيب الاخلاق » وترجم عن التركية للوزيرين الشهيرين فؤاد باشا وجودت باشا كتاب «المراة السنية في القواعد العثمانية » كما اصدر كتاب « جمال الكائنات » وصف فيه الجمال في الحيوان والنبات والجماد ..

ومن كتبه « الرحلة النحلية » وهي رحلة حول العالم في اللغتين العربية والتركية وقد تضمنت اهم الشؤون العلمية والتاريخية المنوطة بالبلاد التي زارها مع سكانها ولغاتها وصناعتها وزراعتها وتجارتها وحيوانها واديان اهاليها وعاداتهم واخلاقهم ، وهو يصور كل هذه الظواهر اصدق تصوير .. ثمة قاموس انكليزي عربي الى الكثير من كتبه غير المطبوعة ، وهي من القيمة الاجتماعية والتاريخية بمكان عظيم واهمها: تاريخ فتنة حلب سنة ١٨٥٠، وتاريخ فتنة لبنان وسورية سنة ١٨٦٠ ، وتاريخ الثورة العرابية في الديار المصرية سنة ١٨٨٢ ، ومن هذه الرسائل والكتب غير المطبوعة كتابه « الاصول المنطقية » وهو بحث في الفلسفة العصرية والقديمة ، وكتاب « مرآة الاعيان في تسلسل الاديان» . كتاب « السكان في النجوم والاقمار» يحوي نحو الف وخمسمائة صفحة وقد قسمه الى ثلاثة اقسام : الاول وفيه ذكر العلماء والشعراء والفلاسفة والفلكيين واصحاب الاديان العظام الذين علموا من اعصار قديمة الى القرن العشرين وجود خلائق ناطقة على سطح النجوم والكواكب ، واورد في القسم الثاني احوال الشمس وسياراتها وسكانها العلوية . واتى في الثالث على وصف النجمة الارضية . وهو اول كتاب من نوعه في العربية ..

وقد تعددت رسائله وكتبه في مختلف اللغات اكتفينا بالالماع الى ابرزها .

بعد ان استفاضت شهرته في عواصم الغرب وفي امريكا ، يمم سنة ١٨٩٠ الاستانة ، عاصمة السلطنة العثمانية ، وسرعان ما احتضنه السلطان عبد الحميد فعينه في « المعية الشاهانية » وانعم عليه بدار فسيحة في احسن بقعة من ضواحي استانبول ، وخصص له خمسين ليرة عثمانية راتبا شهريا . واصدر ارادته بالمثول بين يديه مرتين في الاسبوع ، واختاره استاذا لانجاله في تدريس التاريخ ومترجما لجلالته من اللغات العربية والانكليزية والفرنسية والايطالية الى التركية .

وقد عينه عضوا في المجلس الكبير لنظارة المعارف ، ولبث على هذه الحال حتى أعلان الدستور فاعتزل العمل والتزم قصره في جزيرة الامراء وقد انقطع الى التاليف والمطالعه وجمع معالاته في الصحف والمجلات .

وقد اضاف الى مؤلفاته كتاب « أفكاري » جمع فيه كل ما جرى له من الحوادث مدة حياته ، وهو في مجلدات شتى يضم وثائق على جانب خطير من الاهمية .

كما جمع قصائده في ديوان شعر سماه « شعر النحلة في خلال الرحلة » وهو في نيف وخمسمائه صفحة . وشعره شعر فيلسوف روحاني امتلأ فؤاده بالوعظ والتوجيه ليس فيه طلاوة الشعر وان اصطبغ بالهواجس التي كانت تخطر بباله وتصور بعض شؤونه الذاتية وبعض ظواهر مجتمعه .

والواقع ان الدكتور صابونجي لم يكن اديبا ذا اسلوب . ولكنه كان عالما واسع المعرفة يعبر عن ارائه بلغة سهلة ، بعيدة عن التقعر ، وقد وصفه احد معاصريه بقوله:

« .. لقد تحرى في شعره ونثره الكلام البسيط الخالي من التعقيد والمحسنات اللغوية التي لا فائدة منها للعموم ولا تهذب اخلاقهم ولا تساعدهم على اكتساب معيشتهم فهو « كاتب شعبي وليس بمنشىء لغوي » كما قال عن نفسه » .

فمن شعره في خلود النفس بعد ان حاججه ذات يوم بعض الدهريين قوله :

الى الله تنحو النفس بعد انفصالها   وتجزى الشر او بخير فعالها
دان قيل : بعد القبر ليس قيامة   فقلنا : على الزنديق كان وبالها
وان قيل : ليس النفس تدري معادها   فقلنا : ستدري حين يأتي ارتحالها
الى الاله عود النفس بعد جهادها   متى حل من قيد الحياة عقالها

وفي جدال اخر من فيلسوف من اتباع الفيلسوف اليهودي اسبينوزا الجاحد وجود الله قوله :

يسبح من في البر والبحر والعلا   الها تجلى بالخلائق للملا
كيان بلا بدء وحد وجيز   به البدء منذ البدء كان ممثلا
اله على عرش بلا حد مركز   يسوس وحيدا لا شريك له ولا
رآه بعين العقل كل موحد   وغاب عن الزنديق ما لكنه واعتلى

على ان اطرف اثاره لوحة زيتية كبيرة رسمها بريشته تمثل تسلسل جميع الاديان من عهد ادم الى يومنا هذا . وفيها ٦٦٠ شخصا من جملتها تصاوير جميع الذين انشأوا دينا او مذهبا مع طريقة عبادتهم ورموز عقائدهم وطقوسهم .. وكلها منقول عن اثار قديمة اكتشفها الاثريون في بلاد مختلفة . ويعتبرها الفنيون من اللوحات النادرة ، وقد عمل فيها قرابة اربعين سنة منذ كان في امريكا سنة ١٨٧٢ حتى اكملها سنة ١٩٠٩ ، وقد وضع رسالة بالانكليزية بمثابة دليل او مفتاح لها ، وما فيها من الرسوم مع ذكر تاريخ تلك الاديان وزمان اكتشاف الاثار الدالة عليها والاماكن التي كانت مطمورة فيها .

ثمة جوانب كثيرة في حياة هذا الانسان الموهوب الذي خلع ثياب الكهنوت ليعمل في شتى الميادين ، وقد وفق وبرز وترك عدة مؤلفات ورسائل ترمز الى جهوده الفكرية ونشاطه الادبي والعلمي .

هذه هي قصة هذا الموهوب السوري الذي انبتته ارض الجزيرة المخصاب ، فكان من الرواد الذين خاضوا جميع ميادين المعرفة بصبر وايمان . وقد تجاوز آفاق وطنه الى آفاق بعيدة فكان بحق من المرموقين ، ومن المبرزين ..

وقد ركن في اخريات ايامه الى الراحة بعد جهاده العلمي الطويل ليعيش مع كتبه ورسائله التي لا يزال اكثرها مخطوطة .

وحين شعر بدنو اجله وقد تجاوز العقد التاسع من عمره ، نظر ، وهو في عزلته ، نظرة فلسفية الى مصير الانسان فنظم ثلاثة ابيات لتنقش على قبره ، وهي تهزأ بغرور الانسان الذي يكد ويسعى ، يسعد او يشقى ، ثم تضمه حفرة صغيرة باردة . يقول :

قضى العمر في الاسفار طالب حكمة   يروم فنونا لا تحد وتحصر
ومن كانت الدنيا الفسيحة كلها   تضيق لديه في الحياة وتصغر
كفته بعيد الموت اضيق حجرة   لما اكتفيا بالمثل كسرى وقيصر

حلب

سامي الكيالي

السمفونية الخامسة

شربتها بمقلتي
علي دمي جرت ضياء
أوراق عظمي جنة
لم ترو في بال السماء
تلم ابعاد المصير
تذكار اطياف الازل
تطير بي ، بها أطير
اخطف من دهري أجل
أخلق من عزيمتي
زوابعا مجنونة
أضمها بمهجتي
من خصل حنونه
تغمرني ، فيض حياه
تمدني ، كبر الجباه
معرشا بموجها
في جبهة الشمس بطل

علي شلق

صرخت الام في فزع وهي ترى ولدها سامي يهجم عليها محاولا اختطاف نصف الجنيه الذي تبقى معها من مصاريف الشهر ، وتقلصت اصابعها عليه ثم حاولت امساك سامي الا انه هرب صارخا مهددا ومتوعدا وهو يقسم انه سوف يهرب من هذا المنزل، انه لا يريد ان يعيش فيه بعد اليوم ، واصيبت الام بانزعاج شديد وسالت دموعها وقالت بصوتها الحزين :

– لماذا ستتركنا يا سامي ؟ ... منذ وفاة والدك وانت لا تستقر على حال تركت المدرسة والتحقت بصنعة ولم تصبر بل تركت الصنعة ثم شربت السجائر وانت طفل واصبحت مدمنا وانت شاب لم يعد لوجودك فائدة ، انت تخرب نفسك تدمرها .. وتريد ان تدمرنا معك ، لماذا تفكر بهذه الطريقة؟ اننا ندللك، لا نطلب منك ان تؤدي عملا ولكن نصبر لعل الله يهديك الى الصراط المستقيم والظاهر انه لا فائدة من وراء صبرنا .. كل يوم تزداد سوءا .. كل يوم تزداد انحدارا .. ورغم ذلك فقلب الام لا ينساك .. لماذا تنسانا يا بني ؟ لماذا تريد ان تتركنا ؟ لماذا تريد ان تهرب؟ ماذا ستفعل في بلاد الغربة ؟ .. لا مال ولا صنعة .. اني اخاف عليك من الطريق .. اخاف عليك من الشقاء ... لم تخلق له ... رغم وفاة والدك فأسرتك تكافح واخوتك الكبار يكافحون ، يقتطعون من مرتباتهم ما هم في حاجة اليه لكي لا تحتاج انت وبقية اخوتك الصغار لاي شيء ، انهم يضحون من أجلك وحرام ان تكون النتيجة هذا الفشل وان تكون نتيجة كفاحهم هذا الضياع ... انت مسكين يا ولدي وانا اتعذب من اجلك ، لا اريد ان يبتلعك الضياع واذا كان المبلغ الصغير المتبقي معي هو ما تحتاجه فخذه ولا تهرب ، خذه ولا تخضع لشيطانك .

ولكن سامي كان قد استولت عليه فكرة الهرب من البيت ومن البلدة ... اراد ان يعيش كما يتمنى ان يعيش ، اعتقد ان في استطاعته ان يعمل وان يكسب وان يعود اليها رجلا ... وفكر في سرقة اي شيء يبيعه لكي يسافر بثمنه ثم ليكن ما يكون ، وهداه شيطانه الى سرقة راديو صغير واختفى من البلدة وبكت الام حتى كل بصرها وتأملت وتوسلت الى الله في صلاتها ان يهديه وان يطيع العاصي ، وكلما توسلت بالنسيان خذلها النسيان فالام ليس في استطاعتها ان تنسى فلذة كبدها .. كانت تتذكره فتبكي ويتألم بقية الاولاد ..

وفي احدى الليالي استيقظت فزعة .. رات في المنام ولدها سامي



بقلم السيد ابراهيم

وقد داسته سيارة ثم رآته ملفوفا في ثوب ابيض ثم رآتهم وهم يدفنونه واستيقظت ملتاعة استيقظت باكية ، واستيقظ الاولاد وروت لهم رؤياها وتألم الاطفال ولكنهم سرعان ما شغلتهم حياتهم فنسوا الموضوع ، اما هي فلم تستطع ان تنسى ولدها سامي ...

وتمر الايام وتحاول ان تنسى ولدها ولكنها لا تستطيع وتغرق في الصلاة والدعاء لعل وعسى .. في الوقت الذي كان فيه ابنها سامي قد استقر به المقام في السويس في مدينة الملاهي .. تنقل مع الفرق المتجولة ابتداء من طنطا ثم القاهرة



ثم السويس .. رحلة طويلة تغير فيها تماما .. اصبح جلد على عظم وطال شعر رأسه واتسخ وبانت تجعدات سوداء تحت عينيه رغم طفولته ، وطالت اظافر يديه وتلوثت بالقاذورات ، اما ملابسه فقد اختفت تماما ، باعها ليأكل بثمنها وليشرب الكيف ، واعطاه معلمه بنطلونا قذرا ملوثا بالرقع والتمزقات وقميص ازرق ممزق لبسه على اللحم ، واندمج بزيه الجديد وسط جو الملاهي .. عاش فردا من افراد قاع المدينة ينام النهار ويسهر الليل، يشرب جميع انواع السجاير والمخدرات واذا لم يجد يتجرع اكواب الخمر الرديئة ... تعود على الشرب .. شرب كل شيء ونسي نفسه ونسي اسرته نسي انه انسان وانه ينتمي لأسرة محترمة وعاش في قاع المدينة ، عاش ممزقا ضائعا ، اصبح فردا من البؤساء الذين يفترشون الارض ويلتحفون السماء اصبح كثير السعال كثير البصق ، لم يعد يذوق الطعام الحقيقي ، اصبح زاده فتات قذر وبقايا فضلات المعلم .

وكان المعلم يعده لمهمة خطيرة أراد ان يجعل منه نشالا ولكنه فقد ثقته فيه عندما رآه وقد انهار واصبح لا شيء .. حتى مهنة الظلام لم يعد صالحا لها .. اصبح بالنسبة لقاع المدينة لا شيء فلم يعد يهمهم امره فتركوه وحيدا وسط المولد واصبح في حاجة لسيجارة وفتات الخبز .. لم يعد باستطاعته الحصول على أي شيء ، اصبح مريضا جائعا هزيلا ينتفض من شدة البرد .. جاع وعرف معنى الجوع ..

افاق لنفسه لحظات عندما غاب عنه الكيف .. تذكر نفسه وتذكر من هو وسالت دموعه لاول مرة .. دموع حقيقية لاول مرة .. يتألم ويحن لمنزله ، اشتاق لرؤية والدته .. احس بحنانها وحبها ، تذكر اخوته الصغار والعابهم البريئة ..

تذكر أخاه الموظف الكبير وأخوته وبكى .. وسالت دموعه ثم اصابته نوبة فأخذ يضرب راسه في الحائط ثم يمزق جلد رأسه بأظافره ، انه في حاجة للكيف ، وتخلى عنه المعلم، فقد اراد ان يجعل منه لصا ولكنه لا يستطيع ، لم يتعود على السرقة ، باع كل ما يملكه حتى ملابسه لم يعد يمتلك أي شيء ، انه في حاجة الى سيجارة ، في حاجة الى كأس ، في حاجة لاي شيء .. ولكن كيف السبيل الى ذلك .. ؟ انه لا يستطيع العمل ، ان جسده مريض ، انه يتألم ، والتصق بجسده العاري في الارض وبكى ثم راح في سبات عميق .

وافاق من سباته على صوت عربة النجدة ورجال الشرطة ، ثم وهم يحملونه حملا ضمن الايراد ثم وهم يتركونه على ارضية التخشيبة البلاط ، ثم وهم يجرونه ويوقفونه امام الضابط النوبتجي ، واخذ كل جسده يرتعش ، انه خائف والضابط يتفرسه بعيون جبارة ، انه يغوص الى اعماقه ، وخيل لسامي ان الضابط يعرف كل شيء عنه ، يعرف من هو ، يعرف انه سرق الراديو وهرب ، وارتعش بدنه وعطف عليه الضابط بعد ان هزته رؤيته الحزينة ، وبعد ان صرف الضابط كل الايراد من امامه واستبقاه ثم ابتسم في وجهه وسأله بلطف ، فقد شده اليه شيء غامض :

ـ انت اسمك ايه ؟ ..

ـ سامي يا افندم

ـ ايه اللي عمله في نفسك كده ؟

ـ معليش يا بيه .. عاوز أروح .

ـ انت لكم بيت .. ؟

ـ ايوه يا افندم .. بيت كبير .

ـ حد عمل فيك حاجة ؟

ـ ابدا يا بيه .. أنا هربت ..

ـ يعني لو رحلناك لبلدكم حتحرم تهرب .. ؟

ـ ايوه يا سعادة البيه .. نفسي أروح .. نفسي أشوف امي واشوف اخواتي .. انا تعبان أوي .. عاوز اروح .

واغمى على سامي ، اغمي عليه وذعر الضابط ، احس انه امام نوع غريب من الايراد نوع ليس معتادا على الاجرام ، نوع طفل لا يعرف انه يؤذي نفسه ويدمرها ويهلك روحه ويحطمها وشعر بالاسى لهذا الولد ، شعر انه في حاجة لاسرته وانه لا ينتمي لقاع المدينة حقا عاش وسطها ، ولكنه عاش كالمنبوذ لا يشترك في نشاطها ، احس انه ما زال بخير وانه في حاجة لاسرته واستقر رأيه على ترحيله الى بلده .

وبعد ان قام بعمل الاسعافات اللازمة لسامي ارسل في طلب الطعام وقدمه له ، ولكن سامي لم يذق شيئا وفهم الضابط فأخرج سيجارة ناولها له وهو متألم وانفرجت اسارير سامي ووضع السيجارة بسرعة في فمه واشعلها وجذب انفاسا متلاحقة وعميقة ، وهدأت نفسه ثم ابتدأ يتذوق الطعام ، ثم قام وانحنى على يد الضابط محاولا تقبيلها ، ولكن الضابط منعه وقد بلغ به التأثر مبلغه ثم ربت على كتفه وقال له :

ـ عندما رأيتك عرفت انك لا تنتمي للقاع .. شعرت بعطف نحوك .. تخيلتك ابنا لي .. ابن شارد .. وأردت حمايتك ، ما زال امامك فرصة .. ستذهب الى أهلك ولكن اياك والعودة الى هذا الطريق .. انه طريق مهلك .

ـ سأفعل كل ما تريده .. انا في حاجة للبيت .. عاوز اروح ..

وفي الصباح تم ترحيله والقيود في يديه الى بلدته وكانت رحلة شاقة وطويلة لم يذق اثناءها طعاما ولا كيفا وذابت شجاعته وتبخرت حرارته ، بدأ يحس انه حقير وانه عار وان اسرته ستتبرأ منه ، واحس بالخجل من نفسه فأغمض عينيه وظل يبكي ، وافاق عندما جذبه الجندي من يده ثم سار به في شوارع البلدة ، وتساءل الاهالي في دهشة وهم يرون سامي والقيود حول معصميه والبؤس الغارق فيه ، وانتشرت الاشاعات وملأت البلدة لقد قبض على سامي ابن المرحوم الحاج عيسى ويقولوا انه سارق ..

وما ان اسدل الليل ستائره حتى كانت الاشاعات تملأ البلدة وفي كل بيت قصة عن سرقة او جناية ... وغرقت اسرته في العار . وتوالت الوفود على منزله واستقبلتها الام حزينة ساهمة والخجل يكاد يحطم روحها ، رغم ذلك كانت تريد ان تراه .. كانت في حاجة لرؤية فلذة كبدها لم يمنعها وصف الناس لمنظره من تطلعها لرؤيته حيا واخذت تعد الثواني وتبعث الرسل الى قسم الشرطة حتى تم اخراجه وتسلل به احد اقاربهم مستترا بظلمة الليل البهيم ، ثم طرق الباب وفتحت الام ، وصعقتها رؤياه الحزينة ، وارتمى سامي على اقدامها وبكى حتى تورمت عيونه واخذته الام في احضانها ثم أسرعت تعد له حماما وطعاما .. وهو خجل من نفسه خجل من اخوته ، خجل من وجوده، وبعد ان اخذ راحته وبدأ يستقر وينعم بأسرته جلست الام بجواره وسألت بحنان :

ـ ماذا فعلت بنفسك ؟ ..

واطرق سامي اطراقة طويلة ثم قال : انا غلطان ..

ثم غلبه السعال فأخذ يسعل ويبصق .. واسود وجه الام وسالت دموعها ، لقد انتهى ولدها ، انه ليس سامي ،انه رجل عجوز ، انه حطام ، وبكت الام وتقطعت نياط قلبها من شدة الحزن ثم تحاملت على نفسها وقامت لتعد فراشه لينام ، ثم عادت وقادته اليه واغلقت عليه الباب وذهبت الى فراشها ، ولم يغمض لها جفن طوال الليل .. ظلت مؤرقة ولدهشتها اصابتها اغفاءةبسيطة .. ورات نفس الرؤيا .. رأته في كفن ابيض ثم رات جماعة لا تعرفها تقوم بدفنه .. وقفزت من فراشها مذعورة ، وإسرعت الى حجرته ثم اقتربت منه وتفرست في وجهه وتسمعت انفاسه ... ولكنها ذعرت واطلقت صرخة هائلة فقد كان سامي ميتا ..

القاهرة **السيد ابراهيم**

صورته

★

ان مـر يـوم لا اراه ارى الحيـاة بـلا حيـاه
وتـذوب بسـماتي وتحـرق اضلعـي آلاف آه
وأقبـل الرسـم الـذي بحقيبتـي تحمي سـناه
فلعـل نـار الشـوق تخبو حـين ترنو مقلتـاه
ولعـل قلبـي يستريـح ويستقـر اذا احتـواه
يا لمحـة ممـن احـب وليس فـي قلبـي سواه

يا صورة الغـالي اجيبي صرحـي أين الحبيـب
لكنهـا ترنـو الي مـع التعجـب لا تجيـب
ويضمها ويضمني غـيم مـن الصمت الرهيـب
النطـق خـان لسانهـا والشوق عني لا يغيـب
لو انهـا حجر اصـم سـالتها ايـن الحبيـب
أيمـر يـوم لا اراه مـن بعيـد او قريـب
ردي علـى تلهفـي فالشـوق في قلبـي لهيـب

يا صـورة الحب الذي اهواه لا لسـت البديـل
بل انت يا رسـم الحبيب مع الوفـاء له الدليل
انـا كلمـا اشتاقت اليـه الروح تشفين الغليل
وكأننـي أحكي لـه حبـي العميق وكـم أطيـل
سـيان عندي تسمعين بلهفـة ماذا اقـول
او تعرضـين فلسـت الا ظلـه الحـاني الظليل
اني أحـب لقـاه او نجـواه ان عـز السبيـل
يا رسـم من أهـواه انك لمحـة الحـب الاصيل
فيـك رؤاه وانمـا لسـت البديـل بل المثيـل
لـو عـز لقيـاه علـى الايـام يرضيني القليـل

مصر الجديدة — روحية القليني

بين شكيب ارسلان وسامي البارودي

بقلم فـؤاد شـاكر

***

كانت المراسلات في مطلع هذا القرن ، تؤلف فنا ادبيا له مكانته ، وله كتابه ، وقراؤه ، وعشاقه ، بشطريه ، من نثر وشعر . فأما النثر ، فقد كان يسير وفق اسلوب ادبي معين ، في اطار من الترسل ، او السجع الذي يكاد يشبه الوزن والقافية ، مع العناية بالتنميق والتنسيق ، بالاضافة الى العناية بالالفاظ ، والمحسنات البديعية الى حد ما . واما الشعر فقد كان ينهج النهج العربي القديم ، في اسلوب من البداوة والجزالة ، وفخامة الالفاظ ، وعروبة المعاني ، وكل النواحي التي ابتدعها الشعر في عهد المتقدمين سواء منه الجاهلي ، او ما تلا ذلك في عصور المخضرمين او في صدر الاسلام ابان ازدهار النهضة الادبية ، ومحاكاة لاسماء فطاحل الشعر وشعرائه اللامعين ، كأبي الطيب وابي تمام ، والبحتري وغيرهم حيث كان يتظاهر الشعراء المعاصرون في تقليدهم ، او معارضتهم ، او النظم على منوالهم ، مفتخرين بذلك كل الافتخار ، ويسجلونه في شعرهم علانية وجهارا .

ولقد حفل تاريخ النهضة الادبية المعاصرة ، منذ اوائل هذا القرن بنماذج رائعة من تلك الرسائل حيث كانت تؤلف سمتا بل مظهرا من مظاهر الحركة الادبية آنذاك ، وقد افردت لها كتب خاصة وفي مقدمتها كتاب « جواهر الادب » لمؤلفه الشيخ الهاشمي رحمه الله الذي عني بتسجيل عدد من تلك الرسائل ، باعتبارها جزء من الاساس الذي يقدم عليه الادب المعاصر في زمانه ، وقد تناولت شتى الموضوعات الادبية او الاجتماعية ، او الشخصية ، بل ان بعضها كتب بلغة « الأنشاد » لمجرد المحاكاة على انها مظهر من مظاهر المقدرة الادبية في الابتداع والابتكار .

اريد ان اخلص من هذه المقدمة ــ بصفة عامة ــ الى الحديث عن رسائل « شكيب ارسلان ومحمود سامي البارودي » لما كان لها من الشأن ، والاهمية في زمانها ، حيث كنا نقراهابشغف ونهم وتقدير ، لان ذينك الاسمين الكبيرين ، كان مما يلهج به المجتمع الادبي ، وخصوصا في الصحف اليومية ، او المجلات الادبية ، وما يتناوله عنهما الرواة في مجالس الادب ، وحلقات الدرس من الاشارةوالاشادة ، وذلك ايضا الى جانب المكانة السياسية وأحداثها ، التي انعكس صداها آنذاك ، على الرجلين الكبيرين ، الامير شكيب ارسلان ، ومحمود سامي البارودي باشا .

ومما يزيد في اهمية تلك الرسائل ، انها جرت بين الرجلين على غير « معرفة » شخصية ، لبعد ما بينهما من الشقة المترامية ، فالامير شكيب كان يسكن سوريا ومصر ، والبارودي كان في منفاه بتلك الجزر النائية البعيدة ، وانما هناك « تعارف » ادبي عبر الصحف والمجلات، ثم كانت المراسلات التي احالت ذلك «التعارف» الى « معرفة » ثم الى « صداقة » وطيدة لها مكانتها في عالم الحب والوفاء . حتى لقد حرص شكيب ارسلان على قيدها ونشرها في مجلة « الزهور » التي كان يصدرها آنذاك انطون الجميل ، او خليل مطران ــ كما اذكر ــ (انطون الجميل وامين تقي الدين « الاديب ») ويقول شكيب ايضا انه عندما افتقد بعض تلك الرسائل ، ارسل الى صديقه خليل مطران ، يستعديه على مجلة «الزهور» ليبعث اليه منها ببعض تلك الرسائل .

وتبدأ قصة تلكالرسائل ، او القصائد قبيل مستهل القرن الميلادي الحالي ، أي قبل عام ١٩٠٠ بقليل ، حيث « استشهد شكيب ارسلان » في بعض كتاباته ومقالاته ، بأبيات من شعر محمود سامي البارودي ــ على غير معرفة شخصية سابقة » كما قالت ذلك مجلة « الزهور » الصادرة آنذاك ، فكتب محمود سامي باشا ، الى الامير شكيب ، بأولى تلك الرسائل الشعرية ، يقول :

اشدت بذكرى بادنا ، ومعقبا   **وامسكت ، لم اهمس ، ولم اتكلم**
وما ذاك ضنا بالوداد ، على امرىء   **حباني به ، لكن تهيبت مقدمي**
فاما وقد حق الجزاء فلم اكن   **لا نطق الا بالثناء ، المنمنم**
فكيف ازدر الفضل عن مستقره   **وانكر ضوء الشمس ، بعد توسم**
وانت الذي نوهت باسمي ورشتني   **بقول ، سرى عني قناع التوهم**
لكالسبق دوني في الفَضيلةفاشتمل   **بحلتها ، فالفضل للمتقدم**
ودونكها ، يا ابن الكرام جيرة   **من النظم ، سداها بمدح العلا فمي**

وكانت هذه الابيات ، مناجاةللامير شكيب ارسلان الذي فرح بها ، وبما ترتب عليها من صداقة مقبلة ، واتاحت له فرصة « الاتصال المباشر » متمثلا بقول ابي تمام :

ان نفترق نسبا يؤلف بيننا   **ادب اقمناه ، مقام الوالد**

او بقول امرىء القيس : « ولكل غريب للغريب نسيب » ...

ولقد بادر الامير شكيب بأولى رسائله الى محمود سامي البارودي فارسل اليه قصيدة تتألف من اربعين بيتا ، يقول فيها :

لك الله من عان بشكر منمنم   **لتقدير حق من علاك ، محتم**
وشهم ابي النفس أضحى يرى يدا   **تذكر فضلا او جميلا لمنعم**
رآني كرما مني ، تذكر قوله   **فدل على أعلى خلالا ، وأكرم**
ولو كان يدري فاضل قدر نفسه   **رأى ذكره ، فرضا على كل مسلم**
أيعجب من تنويه مثلي ، بمثله   **لعمر الذيقد شق فيشعره ، فمي**
اذ امطر الغيث الرياض بوابل   **فاي يد ، للطائر المترنم**
اذا ما تصبت ، بالعميد صباحة   **بوجه ، فما فضل العميد المتيم ؟!**

ويتطرق الامير بعد ذلك الى « صميم الموضوع » كما

سندرلا

سندرلا التي تراها
يضوع المسك منها وتشتهيها العيون
من بلاط الرشيد زهو خطاها
وغموض من بابل وفتون
تتهادى كأنها للقاء مترف
بانتظارها (هارون)
هي ولادة تـرى ؟
شـهرزاد ؟
عشتروت ؟
يا سحرها ! من تكون ؟
أنا كل اللاتي ذكرت ولكن
اخطأ الدار سائق مجنون
ورمتني يداه فوق صخور
دون ماء ما ظللتها غصون
لست اشـكو
لكن سألت عن الساق المدمى
والساعد المجبور
وارتباكي وحيرتي حين ألقاك
وانساق في أصطناع السرور
تلـك داري :
خرائب زينتها لفتة الفن
وانتشت من عبيري
يمطر السقف فوق كتبي وأثوابي
وينهـل مـاؤه في سريري
أينما احتمي خرير ، وأنى أتوقى
فمهربي لخرير .
وتراني بشوشة ، أحمد الله ،
واختا لـفي صفاء الضمير .
أمس ، في العاصف المفاجيء
أطرقـت ،
على أي حائط أستكين ؟
جمد الرعب بسمتي وحديثي
وزوتني كما تشاء الظنون
لم يكن خاطرا
سينهار شـيء
وكأني تحت الحطام الدفين .
لم يرق لي موت كهذا ،
ولكن المنايا لم تستشر ما تكون .
وكرعد هوى الجدار ، وأهويـت
وغامت دنيـا ، وزاغت لحون .
انا ان لم أمـت
فقد مات في نفسي كثير
يا رب موت يهون .

بغداد لميعة عباس عمارة

يقولون ، فيسجل بمعانيه الفخمةالجزلة ، مكانة البارودي في الشـعر ، فيقـول :

ولو كان يرقى المرء ما يستحقـه اذا لبلغـت النيرات ، بسـلم
وانت الذي يا ابن الكرام أعدتهـا لافصح من عهد النواس ، ومسلم
وانثرت ميت الشعر بعد مصيره لاعظم نثرا ، من رفات ، وأعظم !!
ولو شعراء الدهر تعرض جملـة بمنجدهم ، من كل حـي ، ومتهم
لابصرتشخص (البحتري)منكبحترا وخلق « ابي تمام » غـير متمـم
لك الابدات الانسات التـي نـات وأنست عكاظ الشعر بل كل موسم

وتمضي القصيدة ، على هذا النسق من المعانـي والجزالة ، ويختتمها بمواساة الشاعر الكبير في منفـاه ، متمنيا له الخلاص والفكاك ، فيقول :

«أمحمودسامي» ان بك الدهر خائنا وطال عليك الزجر طائـر أشـأم
فما زالـت الايـام بؤسـا وانعما وحظ الشقا ، بالمكث حظ التنعم
عسى تعتب الاقدار والهـم ينجلي وينصاح صبحالسعد في ذيل مظلم
وأهديـك في ذاك المقـام تهانئـا حبيرة «مسد» ، « ثناك «وملحم»

ثم تواصلت الرسائل الادبية بالقصائد بين هذيـن القطبين الكبيرين فكتب محمود سامي البارودي بقصيدة الى الامير شكيب هذا مطلعها :

أدى الرسـالة عصفورة الـوادي وباكري الحي ، من قولي بانشادي

فأجابه الامير شكيب بقصيدة مطولة هذا مطلعها :

هل تعلم العيس اذ يحدو بها الحادي ان السرى ، فوق اضلاع واكبـاد

فرد عليه محمود سامي ، من جزيرة سيلان بقصيدة مطولة ايضا هذا مطلعها :

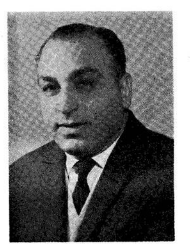
ردي التحيـة يا مهـاة الاجـرع وصلي بحبلك ، حبل من لم يقطع!

فأجابه الامير شكيب بقصيدة يقول فيها :

أترى يحل هواك ، بين الاضلـع ويحل لي ، بسواك ، ذرف الادمع

وهي قصيدة طويلة ايضا ، كانت ختام المراسـلات بينهما ، رحم الله الرجلين الكبيرين واجزل لهما الثواب والاجـر ..

جدة ـ السعودية فؤاد شاكر



كمال رستم

اضواء على الرواية الجديدة

بقلم لوران لوساج

عرض وتلخيص : كمال رستم

* * *

الطبيعة الانسانية والشخصيات في الرواية الجديدة

تخلت الرواية الجديدة عن « الفكرة التقليدية للانسان » وهذه السمة هي ابرز سماتها .. ومعنى هذا .. التخلي عن فكرة الطبيعة الانسانية كشيء تام او نموذج وكجوهر مستقل عن او سابق على وجود الانسان ... وهذه هي نفس الفكرة التي يهاجمها سارتر على اسس ميتافيزيقية. وهذا المعنى نفسه هو الذي قصده رينيه مارسيل البيريس René Marcell Albéres حين قال : ان رفض الروائيين الجدد لعلم النفس هو رفض للاجيال الانسانية اما كاميل بورنيكويل Camille Bourniquel فيقرر « ان الفكرة المعينة عن الانسان ووضوح العالم المخلوق هما في كفتي الميزان هذه المرة .. » ويستطرد قائلا : كيف يسعنا ان نظل غرباء بالنسبة لحطة الانسانية هذه وبالنسبة لهذا الرفض للطبيعة الانسانية . ومعنى هذا بعبارة مبسطة أن المثل الاعلى الانساني لا وجود له في الروايات الجديدة وعلى ذلك فاننا لا ننتظر ان يقوم بيننا اليوم كاتب يصيح صيحة والتر بيزانت Walter Besant في انجلترا في الثمانينات : « من حسن الحظ انه يستحيل ان يوجد في هذا البلد شخص يدنس الانسانية او يجرحها ثم لا يزال يدعى فنانا » ومع ذلك فان هذه الصيحة لم تكن ليتردد لها صدى في فرنسا في ذلك الوقت نفسه وقت أميل زولا فيجب اذن الا نبالغ في الاحترام الذي نالته الطبيعة الانسانية في الماضي فلا العصور الوسطى المسيحية ولا العصور الحديثة التي انتشرت فيها نظريات المذهب الحسي عملت على تمجيد الطبيعة الانسانية مع هذا الفارق وهو ان انسان العصور الوسطى ان كان آثما تعسا الا انه كان مفطورا على الخير . اما انسان اليوم التعس كما تصوره الرواية الجديدة فليس وراءه شيء على الاطلاق .

ان الاعتراض على الفكرة التقليدية للانسان باعتبارها تؤدي مفهوم فكرة الشخصية الكاملة ، ليس من اضافات الرواية الجديدة بل هو في الحقيقة اعتراض قديم يوغل أحيانا في القدم . فالمفكرون البوذيون مثلا رفضوا ان يعتبروا النفس جوهرا ، ومنذ هيوم ومقالته المعروفة عن الطبيعة الانسانية والفكرة مدار المناقشة والبحث وفي القرن العشرين كان الدفاع عن الفكرة متعذرا بل مستحيلا على اثر نكسة المذهب الشخصي وقيام التحليل النفسي ثم ظهور كتاب تيار الشعور — مارسيل بروست وغيره .

ان تكنيك الروائيين الفرنسيين الاساسي كان ولا يزال يستهدف دراسة الشخصية بعمق ، فهو يقطع في الطبقات الخارجية ليعرض طبيعتها الحقيقية للضوء . الا ان النتائج لم تكن موفقة ابدا لسبب بسيط وهو انه لا توجد أساسا طبيعة حقيقية . وقد نقول ان التطلع التقليدي للرواية كان في الحقيقة اكثر تواضعا فهو لا يستشرف الى اكثر من اظهار النقائص المترتبة على النظر للناس من الزاوية الاجتماعية وعندما نتجاوز هذه النظرة الى حقيقة امرهم او جوهر امرهم فمثلا في كشف النفاق وغيره نجح الروائيون فيما قصدوا اليه وان كنا نشك في أن التصور الثابت للسطح والعمق يتضمن كل ما ينشده الروائيون الجدد كذلك عرض شخوص الرواية « كنماذج » كضرورة جمالية اكثر منها قصدا سيكولوجيا يبرر البساطة وتجويد الاسلوب لاغراض فنية ، لان عرض النماذج والشخوص المحددة تحديدا تاما ينطوي على فكرة الشخصية الكاملة التي يرفضها بشدة الروائيون الجدد وعلى ذلك يرفض الروائيون الجدد التكنيك باعتباره مزيفا للحياة ومبالغا في تبسيطها .

تقول ناتالي ساروت ان الشخوص كما ادركتها الرواية القديمة « وكل الادوات القديمة المستخدمة لعرضها — لم تعد تنجح في الاحتواء على الحقيقة السيكولوجية ، فليس ثمة شخص طيب ولا شخص خبيث ولا شخص بخيل بل كل من هؤلاء ينطوي على الجميع في

وقت معا . فالروائيون الجدد يضعون بدلا من النواة الجامدة للشخصية تيارا من العواطف والفرائز دائم التغير ، دائم الجريان ملك للانسانية جمعاء » وفي هذا المعنى نفسه يقول جان كيرول « اليوم لا يمكن ان يفكر انسان في رسم البخيل او الرجل الفيور او الرجل الخجول .. اننا كل هؤلاء في وقت واحد ، وكل ما نستطيع عمله هو وضع ايدينا على فرد في لحظة نفسية معينة » . وبذلك يحتل العنصر السيكولوجي او الظاهرة السيكولوجية مكان الفرد كوحدة يجب دراستها . وهكذا عن طريق تطور شبيه بتطور فن التصوير – ولو انه تطور اكثر ترددا وبطئا تتخلله وقفات طويلة وانتكاسات – يحرر العنصر السيكولوجي نفسه بطريقة غير محسوسة – شأنه في ذلك شأن العنصر التصويري – من الشيء الذي اعتاد ان يمتلكه .. انه يميل الى الاكتفاء بنفسه والى التقدم بأقصى مدى دون مساعدة وعلى هذا العنصر يركز الروائي كل بحثه وعليه يجب ان يركز القارىء كل اهتمامه .

ولكي يجتث الروائيون الجدد الفكرة الكاذبة عن الشخصية تجنبوا كل الحيل التي استخدمها الروائيون الاخرون فتخلوا تماما عن الاحصاءات والاوصاف الفرتوغرافية والتزموا ادنى حد من الفردية . وفي مقالها عصر الشك اشارت ناتالي ساروت الى التجهيل المتزايد للشخصيات في الرواية .. حتى الاسم تعتبره مصدر حيرة وارتباك للروائي وهكذا تحاشى « جيد » اسم العائلة لشخصيات رواياته لان الاسم يضعهم فورا في عالم شبيه جدا بعالم القارىء ويفضل « جيد » الاسماء الاولى الغير عادية . أما بطل « كافكا » فكل نصيبه من اسمه هو الحرف الاول فقط (من اسم كافكا نفسه) وجويس اعطى اسم بطل رواية فينجانوويك Finnegans Wake الحروف H. C. E. أما «فوكنر» فقد اعطى الاسمين الاولين لشخصيتين مختلفتين في رواية الصوت والفضب The Sound and the Fury والهدف من هذا التجهل هو القضاء على بلادة القارىء وعجلته ودفعه الى التعرف على الشخصيات – شأنه شأن المؤلف نفسه – من الداخل حتى يجعل رؤية المؤلف هي رؤيته « فالانا » في الرواية الجديدة غير محددة تماما وهي ليست « انا » « المؤلف » ولا تهتم بخلق عالم يشعر القارىء بالفته له . وشخصيات « ساروت » نفسها لا تمتلك حدودا فردية فالي ظهور روايتها القبة السماوية Le Planétarium لم يكن القارىء يستطيع التحقق تماما من الشخصيات التي تتكلم في رواياتها ، والشخصيات الثانوية لا وجود مستقل لها بل هي تجارب او احلام الانا .

ان الروايات الجديدة تتجنب كل الوسائل التقليدية المألوفة لتعريف الشخصية واذا تقبلنا بعضها – كما في حالة الديالوج فلكي تظهر فقط ان الرجل الاجتماعي المشخص ليس سوى اكذوبة او شبكة من الاراء المألوفة التي تعارفت عليها الجماعة التي ينتمي اليها ان السن والعمل ومحل الاقامة هي امور سطحية اما ان نتجاهلها تماما او ندعها تتآلف لتشكل الشخص غير الحقيقي الذي يتوق الروائيون الجدد لعرضه لذلك يجب الا نسمح للقارىء بأن يتوهم بأنه يرى الشخصية كفرد او انه لديه منظر كامل للشخصية .. وبسبب اصرارهم على ان الشخصية لا يجب ان تحدد او تحاط عارضوا بقوة التكنيك التحليلي ورأوا ان تكنيك وجهة النظر اكثر امانة والتصاقا بالحياة ، وهكذا يحل المونولوج الداخلي والمحادثة وتيار الشعور محل الفقرات الشارحة الطويلة المملة التي يشرح ويفسر فيها الكاتب الواقف بعيدا عن شخصياته والذي يعرف كل شيء عنهم حقيقة امرهم . فالكاتب والقارىء الان داخل الرواية لا خارجها وهمنا داخل الشخصية ذاتها حتى لا يمكنهما ابدا ان يحيطا بنظرة كاملة لها .

ان الروائيين الجدد بمساواتهم علم النفس بالتعريض Exposition او التحليل المباشر وقعوا في التناقض والاضطراب ذلك ان العقل الانساني لا يزال موضوع روايتهم ومن هنا علم النفس . ولو انهم قالوا ان معركتهم هي مع علم النفس التحليلي اذن لامكننا ان ندعو الكتابة الجديدة بعلم النفس الوصفي لنفرق بين الاثنين وقد تكون لفظة « ميتاسيكولوجي » Metapsychology مناسبة للكتابة الجديدة طالما ان الميتاسيكولوجي تدرس علم النفس عند المستوى الذي يختلط فيه علم النفس بفلسفة المعرفة إلا اننا حينما ندرك ان لفظة علم النفس تتضمن افتراضات علمية وميثودولجية كالفرض والبرهان والنتيجة الخ .. وهذه كلها غريبة على الرواية الجديدة فاننا لا يسعنا الا ان نصر على ان لفظة علم النفس على اي وجه من وجوهها ليست هي اللفظة الصحيحة . فالرواية الجديدة بقصرها نفسها على تسجيل رجوع الوعي دون اية افتراضات انطباعية تتبع تماما الطريقة الفلسفية التي يدافع عنها الفيلسوف الالماني ادموند هوسرل Edmund Husserl ويروج لها « سارتر » في فرنسا – تجعل لفظة دراسة الظواهر Phenomenology اللفظة الوحيدة المناسبة وهكذا فان القضية المعقدة لعلم النفس والرواية الجديدة تحل نفسها بقولنا ان علم الظواهر حل محل علم النفس .

ان رفض الروائيين الجدد للطريقة التحليلية في عرض الشخصيات مؤسس على نفس الرفض الفلسفي للمثالية التي دفعت « ادموند هوسرل » في مفتتح هذا القرن الى رفض الكانتية الجديدة فقد قال هوسرل قبل سارتر او اي كاتب من الكتاب الجدد بأن العالم موجود قبل ان يكون اي شيء ولكن العالم بوجوده هناك ليس

معناه انه مستقل بذاته تماما .. ان العالم هناك فقط لانه مدرك بواسطة الوعي الانساني الذي يعطيه مغزاه وحقيقته ، وبالعكس الوعي لا قيمة له بدون العالم طالما أن الوعي يعني الوعي بشيء وهكذا بالنظر الى العالم باعتباره موجودا خارج الوعي وبوضع الوعي في العالم ليس كشيء ولكن كنوع من توضيح الاشياء يعارض هوسرل الفكرة المثالية والعقلية « للانسان الداخلي » المجرد واللامتفير .

يقول ميرلو بونتي Merleau-Ponty عالم الظواهر الفرنسي « ان الحقيقة لا تسكن فقط في الانسان الداخلي او الاحرى انه ليس ثمة انسان داخلي ، انما الانسان في العالم وفي العالم يعرف نفسه » وسارتر في مقاله « فكرة اساسية عن هوسرل » يعلن ان فكرة هوسرل عن الوعي القصدي حررتنا من الداخلية وهذا بالنسبة للروائيين الجدد يعني تحطيم الطبيعة الانسانية المجردة المعينة وبالتالي تحطيم مثل هذه الشخصية وتفتيت الوعي في العالم « وعند روب جرييه الذي يردد صيحة سارتر » ان الداخلية قضى عليها تماما وان الاشياء وجدت قبل ان تكون شيئا ما ، يبدو انه لم يبق شيء سوى العين الانسانية تجول في العالم ، وربما ابدى روب جرييه بوضوح اكثر من غيره رفضه لنظرة الجوهري Essentialist الذاتية فهو لم يملأ فقط رواياته بأوصاف دقيقة للاشياء الخالية من القيم الانسانية الذاتية والصفات بل انه ايضا في مقالاته دأب على مهاجمة الذاتية .

ان كل الروائيين الجدد اتبعوا الطريقة والهدف الذي استهدفه « هوسرل » حينما طالب بالعودة الى الاشياء .. والطريقة محايدة تماما فلا تدعي ميتافيزيقيا واقعية او مثالية . لا شيء كما يقول روب جرييه يمكن ان يشير الى الجوهرية Essentialism او نظام سبق اقامته . ان الطريقة تهدف الى مجرد وصف العالم كما يبدو للوعي التام السذاجة فغرض الكاتب هنا كغرض الفيلسوف « ان يصور العالم كما يضاء بالوعي وان يصور الوعي ذاته في عمله لادراك العالم واعطائه معنى » .

وهنا قد يقف المرء ليتساءل : الم يقع الكتاب الجدد هنا في خطأ اساسي جمالي وربما سيكولوجي ايضا في مساواتهم عملهم بعمل الفلاسفة الوجوديين . ان الاستخدام الدقيق لما يشعر به الروائي ويراه ينكر على القارىء الاعلام الاساسي الذي يمتلكه الراوي نفسه فبطل رواية كلود اوليه Claude Ollier حفظ النظام Maintien de L'ordre مثلا يعرف نفسه تماما ويعرف لماذا يطارد وهكذا .. فلماذا نجعل القارىء يخمن هذه الاشياء ؟

ان البطل التقليدي للرواية اصبح مجرد وعي مسجل وهويته غير محددة عمدا طالما انه كموضوع للبرهان الفلسفي يجب ان يمثل وعيا غير محدد ايضا لا وعيا معينا معرفا بالسن والجنس او الحالة . ان هذ التجهيل الذي نلاحظه هو ما يميزه عن بطل تيار الشعور « لفرجينيا وولف » او حتى « جويس » فمع هؤلاء الكتاب ما يعرض هو ذهن معين وما يرى العالم هو عينان معينتان .

ان الروائيين الجدد في محاولتهم تصوير ذهن كل انسان عليهم ان يبقوا مع حالات اساسية وعواطف عامة اذا كانوا يريدون ان يتجنبوا الاعتراض السابق الاشارة اليه بالنسبة لرواية « حفظ النظام » وان يتخيروا لبطلهم نموذجا يصور التجربة بطريقة مباشرة ، ويصدق بقدر الامكان ولما كان ثمة نوع من الاشخاص يمكن ان يقوم بتسجيل الوعي احسن من غيره فقد تطور في الرواية الجديدة نموذج البطل الذي يقبله القراء اكثر من غيره كمتحدث باسم الانسانية . والبطل الجديد ـ من الوجهة المثالية ـ شخص غريب تختلف عملياته عن عمليات الحيوان الاجتماعي الذي تحركه مدركات الجماعة ورجوعها « فروكنتان » Roquentin بطل الغثيان لسارتر « وميرسولت » Mersault بطل الغريب لكامي يمكن اعتبارهما نموذجين اصليين فهما شخصان وحيدان تجعلهما وحدتهما يخدمان بطريقة مثالية غرضهما ، ولما كانا قد تحررا من كل التزاماتهما بالنسبة للعالم ومن الامال والاوهام او من قوانين القيم المجردة فانهما يسعهما ان يقدما بطريقة مثالية مرآة الوعي وهو يعمل .

ان البطل الجديد يتجه نحو نموذج الشخص الوحيد المنبت الذي لن يبقى او لا يستطيع ان يبقى مع الجماعة وحين نفكر على سبيل المقارنة في ابطال وقصص الحب والمغامرات القديمة الذين هم مثال الكمال يبدو من المضحك أن نطلق نفس اللفظة على هؤلاء الغير متكيفين مع المجتمع .

ان ارمان Armand بطل جان كيرول افاق شرس وله نظراء عديدون في رواية اليوم وقدحدد بيير دي بواسديفر Pierre de Boisdeffre البطل المضاد الجديد Anti Hero بقوله « في رواية اليوم حل الصعلوك محل البطل وحل الاشخاص الغير متكيفين مع المجتمع والاقل امتيازا محل جماعة الشخصيات الفنية التي تبدأ من جوليان سوريل Julien Sorel الى ابطال تولستوي .

ان بطل الرواية كان يدعى ـ اذا لم يكن من أجل القداسة والحب او الموهبة ففي القليل من أجل تذوق ثراء العالم ومسرات الفعل وافراح التفكير ـ ليعيش في صحبة الاخرين وليشاركهم آلامهم وآمالهم اما بطل رواية يكلمونك On Vous Parle لجان كيرول فقد اصبح رمز النوع البشري المتداعي الذي يأكل خلسة وينام خلسة ويحتمل الحياة ولا يسيطر عليها شخص لا يومىء اليه شيء ولا يعرف كيف يضحك ولا يجرؤ على الحب ولا يعرف من الوجود الا جانبه السيء واهاناته . من بطل جان كيرول الذي يستدعي رحمة القلوب واشفاقها الى صعاليك بيكيت يزدحم الطريق حيث تزداد الحالة سوءا » .

ويمكن ان نضع ابطال « كافكا » كنماذج اصلية شأنها

شأن ابطال « سارتر » و « كامي » لان القلق الذي يعانونه يقتسمه معهم الكثير من ابطال روايات اليوم الذين تتزايد تعاستهم بالخوف والشعور بالذنب . ان الروائيين الجدد لكي يظهروا الخوف الفلسفي الذي يعتبره سارتر ملازما لحالة الجنس البشري وجدوا ان افضل شخوصهم هم الاجنبي والمنبوذ والفير متكيف فكل من بطل رواية Martereau ورواية « صورة مجهول » لنتالي ساروت جبان رعديد قعيد غرفته من الخـوف والتوجس من وحوش غير منظورة يبتعثها خيالـه . ان حساسيته العصابية توحي اليه بأن كل العالم يدمغه بأنه غير متكيف، ان التحقير الانساني يصل الى ادنى مستوياته في ابطال « بيكيت » فهم مشلولو الحركة عديمو الحول والطول حتى ليبدوا لنا انهم اموات وان نشيجهم عويل واشباح .

هذا هو نموذج البطل في الرواية الجديدة ، فالكتاب الجدد في طلبهم الوعي المسجل قبل كل شيء وجدوا في الغريب المجهول الشخصية الكاملة وقد يكون هذا الغريب أجنبيا كما في بعض روايات بيتور Butor الا ان وحدته تتضمن على وجه الخصوص نوعا من الحطة لانه يمثل عموما وبأكبر قدر من الصدق ما يدعوه فلاسفة اليوم بالحالة الانسانية The Human Condition (1) وقد اختار كل من روب جرييه وكلود سيمون في رواياتهما الاخيرة ان يصورا جنديا منبتا عن الجماعة بعد الانكسار والهزيمة، مخلوق مذهول مسلوب الكرامة من أثر الجوع والتعب . مخلوق مضحك في أسماله البالية المزيقة . فاذا لم يستطع ان يتكلم عن الحالة الانسانية التي ضمن عالمها جان بول سارتر وهذه تعرف في كل مكان في الرواية الجديدة بالتعاسة واللهاوية ، ولا توجد الى جانب الوعي المسجل الذي هو الشخصية الرئيسية شخصيات ذات خطر في الرواية الجديدة المثالية . وقد يظهر اشـخاص آخرون حينما ينظر اليهم البطل ووجودهم يعتمد تماما على وعيه . والكتاب الجدد لا يوافقون على وجود الشخصيات التقليدية الثانوية والخارجية Peripheral دون ان تكون عين الراوي عليهم .

وتندد ناتالي ساروت بالقدرة التي يعزوها الروائيون الى انفسهم على خلق شخصيات ثانوية مستقلة وتقول ان القراء يدركون تماما ان الروائيين يتوازعون انفسهم على هذه الشخصيات وخلصت الى قولها ان الروائيين يكونون اكثر امانة وصدقا اذا هم تخلوا عن هذا التفكير المتعدد الاجزاء . والقضية التي تثيرها ناتالي ساروت قضية معقدة تتناول الشخصية الرئيسية والثانوية معا . فالى أي حد يمكن او يجب على الكاتب ان يخترع شخصية ما ؟ فمن جهة ، من المسلم به ان الكاتب لا يستطيع ان يتخلص تماما من نفسه ومن جهة اخرى لا يمكنه ان يقصر نفسه على السيرة الذاتية ، والقضية تتناول روايات تيار الشعور كما تتناول غيرها من الروايات طالما ان جانب الاختراع فيها قد يتعاظم كما هو الشأن في الروايات الاخرى فنحن مثلا لا نستطيع ان نربط قاتلا ساديا او زوجا غيورا « بروب جرييه » ولا رجل اعمال في خريف العمر يخطط لهجر زوجته « بميشيل بيتور » ولا حتى شخصيات « ناتالي ساروت » بنفسها والادعاء بقدرتنا على دخول ذهن شخص آخر لا يقل عن الادعاء بقدرتنا على وصف شخص وتحليله خارجيا . . ان « بلزاك » يستطيع ان يصف اي عدد من الاشخاص دون ان ينال وصفه من تصديقنا ، ولكن تكنيك تيار الشعور يفرض تحديدات اكثر صرامة فعندما تتحرك « فيرجينيا وولف » بسرعة من ذهن لاخر مع تركيزها وجهات نظر مختلفة على موضوع معين فاننا نعلم جيدا انها تخترع .

ان الروائيين الجدد المنتمين للمدرسة الجديدة يتحركون ايضا وفي بعض الاحيان من شخصية لاخرى الا ان تحركاتهم لا تعني تأكيد الاختلافات بين الافراد بل انها غير مفروضة حتى لا يكاد القارىء يفطن اليها ، والقارىء عادة لا يكون واثقا تماما من الشخص الذي يفكر او يتكلم .

وتؤكد « ناتالي ساروت » ان الروائيين الجدد يعملون على عمق تنحل فيه كل الاختلافات الموجودة بين الافراد الا ان هذا قد يكون صحيحا فقط بالقياس الى الدوافع الاساسية والحوافز .. الخ .

ان عدم الفصل بين افكار شخص وافكار شخص اخر وتوزيع الشعور بين عدة اشخاص قد يبدو عملا غير امين كما في رواية « بيتور » ممر ميلانو Passage de Milan حيث يختلط الامر على القارىء لتنقل الكاتب بين عشرات الاذهان الا انه من حسن الحظ ان الروائيين الجدد مثلهم مثل «بيتور» في روايتيه اللتين اعقبتا « ممر ميلانو » يبقون مع وعي واحد ويتركون الشخصيات الاخرى مسطحة .

القاهرة — **كمال رستم**

١ ـ بمعنى الوجود الانساني The Human Existance

اسطفـان الغلبـوني

بقلم شكر الله الجر

***

اسطفان الفلبوني نكتة الشعر ونكتة الصحافة العربية في البرازيل . شاعر المآتم والافراح . لم يأت على ذكره احد ممن تناولوا الادب المهجري والمعوا الى صحافته . لانهم قصروا بحوثهم على كبار الشعراء والكتاب والصحافيين .

اما اسطفان الفلبوني وشعره وجريدته « الميزان » ونوادره الطريفة فما حظيت من اقلامهم بنصيب . على كونه كان في الرعيل الاول من الادباء النازحين الى البرازيل عام ١٩٠٧ عاصر نعوم اللبكي وحرر في جريدته « المناظر » وفي جريدة « ابو الهول » يجيد من اللغات العربية والفرنسية والسريانية انسجاما مع بيئة ذلك العهد في مدرسة « عين ورقا » الشهيرة . وقد لبس فيها قمباز الشماسية اعواما ثم نفضه عنه وراح يزاول مهنة التعليم في بعض قرى البترون قبل ازماعه الهجرة الى البرازيل حتى وبعد وصوله اليها كان اول من اسس مدرسة لتعليم العربية ابناء السوريين واللبنانيين في مدينة سان باولو . اما تاريخ هجرته من لبنان فلا يعرفه احد . انما يقال انه ذهب الى البرازيل بدعوة من احد انسبائه الاغنياء واستقر فيها يعمل في حقل التجارة ردحا من الزمن تعرض خلاله للخسارة فأقلع عنها ينفض غبارها عن نعليه ولم ينفض ديونها عن منكبيه فأعلن الدائنون افلاسه واستمر متواريا عن العيون اشهرا ..

ومن شعره في التجارة قوله :

اذا رمت التجارة كن كذوبا ... وثرثارا ومحتالا خسيسا ..
وحاذر ما استطعت الصدق فيها ... لكي تجني المكاسب والفلوسا ؟

ولعله اول شاعر عربي مغترب سن للتجارة دستورا بين ابناء قومه المغتربين فأفاد الكثيرين ؟؟

عرفت شاعرنا الفلبوني في بعض اسفاري الى مدينة سان باولو وهو يحبو الى الستين من اعوامه فطاب لي مجلسه واستهوتني نوادره اللطيفة ، وما يتناقله الادباء من اخباره ومن حوادث حياته الخاصة ، واهمها زواجه من امرأة سليطة فاجرة . وذلك انه لجأ في يوم من الايام الى بعض سماسرة الزواج ليدبروا امره وما لبثوا ان اقبلوا عليه يبشرونه بأنهم وجدوا له عروسا تقاربه سنا وتضارعه علما وفهما ، ولها من والديها ارث لا بأس به قد يعينه على اصلاح شأنه ووفاء دينه فهلل الرجل وراح يعلل نفسه بحياة افضل ويعلل دائنيه بوفاء ما عليه .

وبارك الكاهن اكليل العروسين وكلاهما في الخمسين من العمر وجلسا يتقبلان التهاني والهدايا من الاصحاب والاقرباء . وانبسط وجه الحياة بعد انقباضها لصاحبنا الشاعر فزقزق وغرد وفتح ابواب داره لزائريه وبينهم الاديب والصحفي والتاجر وكان يردد لهم على مسمع عروسه بيتين من الشعر نظمهما فيها وكتبهما على رسم العرس :

ما كنت احلم ان فيك سعادتي ... حتى رايتك تخطرين بداري
انت الرفيقة والحبيبة والمنى ... وجمال أيامي وضوء نهاري

ولله ما تخبأ الاقدار في طياتها من مفاجئات فما كادت تنقضي اشهر ثلاثة على هذه الفرحة حتى جاءت القرحة .. فانقلبت الزوجة الناعمة الى صاعقة تزعزع اركان البيت وتحول حياة الشاعر الى جحيم لا تنطفىء ناره ...

وكان كلما التقى بسمسار زواجه ينتهره قائلا « بعد عندك كتير من العرائس الحلوين » ومما يرويه اصحابه من شعره في زوجته :

ولي زوجة لو كان ابليس زوجها ... لطلقها بعد الزواج بأيام
لها سحنة يستنكر القرد شكلها ... ويذعر منها ان تراءت بأحلام
يضاعف قبح الوجه قبح طباعها ... وقبح لسان لاذع القول شتام
أقول لعزرائيل خذها ولا تخف ... فيهزأ عن شؤم بقولي وآلامي
ورحت الى المطران ارجو طلاقها ... فاعرض عني مستخفا باوهامي
فيا رب انقذني ويا رب نجني ... وان كان في الانقاذ موتي واعدامي

بيد ان الزوجة المحترمة لم تنتظر ان يطلقها المطران او يحملها الشيطان بل شمرت عن ثوبها واطلقت ساقيها للريح حاملة معها متاعها وما لها تاركة وراءها العم اسطفان يصفق من الفرح ويردد :

الحمد لله ثم الحمد لله ... لا ردها الله راحت دون اكراه

وعندما كان بعض الخبثاء من اصحابه ممن عرفوا قصة زواجه يسألونه ما رأيك بالزواج يا عم اسطفان لقد اعتزمنا ان نترك حياة الوحدة لنؤسس لنا عائلة كان يجيبهم بنزق : « مجانين اولاد مجانين — ايش بدكم بها الضربة السخنة .. »

ومما كان يضحك الناس منه هو صوته الرفيع وعنقه الطويل وقوامه المحدودب ونظاراته الغليظة وقبعته العريضة على تجاعيد في الوجه ، وضمور في الوجنتين ، وخطر له يوما ان يمتهن الصحافة فاصدر جريدة اسماها « الميزان » وما ان صدر العدد الاول منها حتى انبرى يجمع اشتراكاتها سلفا عن سنة كاملة ثم اوقفها فجأة .. وبعد مدة عاد فأصدرها ثانية ليقبض الاشتراك من جديد فكانوا يقولون له :

ما هذا يا اسطفان أتقبض الاشتراك مرتين . فكان يجيبهم : « عزرايل يقبض رواحكم خايفين لتنكسروا .. »

وهبط مرة عاصمة الاتحاد البرازيلي ليجمع

المغرور

وكأنك العملاق يمشي في غرور
وكأنك المعبود في الكون الكبير
وكأنك الرواغ من ليل القبور
لا يرتمي في رقدة يوم النشور
وكأنك الفرحان يملؤه السرور
وكأنك الريان في ظمأ الهجير
لا يحتمي في ظل انفاس العبير
وكأنك الايام في فلك تدور
لم تخش عاقبة ولا سوء المصير
يأيها المغرور يا أعمى الضمير
يا بقعة سوداء في الضوء المنير
يا قطعة شلاء في ركب المسير
يا مهبط الاثام يا وحي الشرور
يا جثة جوفاء الا من ثغور
يا غارقا في بحر اوهام يفور
يا صاحب القلب الرخامي الكفور
في عينك المرآة للوهم الضرير
في قلبك المشكاة للحقد الحقير
فالبث وحيدا لا صديق ولا نصير

القاهرة — احمد محمد عبدالغني

الاشتراكات لجريدته من تجار الجالية وكان الشاعر المشهور المرحوم عقل الجر من تجارها المعروفين يومذاك . فأرسل اليه اسطفان الابيات التالية وقبع ينتظر الجواب .

يا صاحب العقل الكبير الوافر ... يا شاعرا أدرى بحاجة شاعر
ما جئت اطلب منك مالا انما ... هو اشتراك جريدة كمناصر
أفهل تريد الوصل باسم الشاعر ... أم هل تريد الوصل باسم التاجر

وما لبث ان جاء الجواب :

ان شئت ارسله الي كشاعر ... أو شئت ارسله الي كتاجر
ما ضائري في الحالتين وعملتي ... في بندر الاداب عملة شاعر ؟

ولكن الصحافي اسطفان لم يقنط لهذا الجواب واذا به يدخل على عقل قائلا :

« لا تواخذني يا استاذ انا مستعد قدم الجريدة هدية . ولكن ما رأيك في كم قطعة قماش من محلك اعملهم قمصان على المودة .. »

فضحك عقل وقال « هيك بتطلع علي اغلى يا استاذ ولكن لا بأس خذ ما تشاء على شرط ان تبقى تغسل قميصك ولو مرة واحدة كل شهر » .

ولما افلست جريدة الميزان واعرض عنها المشتركون عمد صاحبنا الى التكسب بأساليبه الخاصة فنظم ثلاث قصائد في الرثاء وفي المديح والتهنئة وما اكثر هذه المناسبات في جالية كبيرة كجاليتنا في سان باولو من افراح ومآتم وولادات فما كان صاحبنا اسطفان ليكلف نفسه بنظم قصائد جديدة بل يكتفي بأن يبدل الاسم فقط من بطرس الى جميل الى يوسف وتبقى القصيدة ذاتها وكان مورده منها يتراوح بين العشرين والثلاثين ليرة برازيلية وهي قيمة لا بأس بها في ذلك الوقت . واذا قال احدهم يا استاذ اسمعنا غير هذه القصيدة فقد سئمنا من استماعها في كل حفلة اجابهم : « ادفعوا احسن بعطيكم شي جديد » .

ومن نوادره الحلوة انه توفيت في بلدة (كامبيناس) سيدة غنية تاركة لانسبائها ارثا كبيرا فاضطر اسطفان ان ينظم في رثائها ابياتا جديدة جاء فيها :

بكيت عليها من صميم حشاشتي ... على حين يبكيها سواي من الجفن
ولو اورثتني مثل غيري فلوسها ... لمزقت اثوابي عليها من الحزن ؟

فلم يتمالك السامعون من الضحك وراحوا يهمسون في اذنه « لا لا يا استاذ توكد ثيابك بعد عمر طويل بدنا نحفظها في المتحف » وذلك ان اسطفان منذ دخل البرازيل ظل يرتدي الطقم الاسود الذي اشتراه من بيروت يوم سفره حتى آخر عمره وكان يقول عن طقمه :

« طقمي جوخ انكليزي ، وطبعوا طبع انكليزي ، كل ما شلحتو عني يرجع يلبسني ، وان كان ما بتصدقوا شيلو الانكليز من مصر وشوفوا كيف بيرجعوا تاني يوم » .

عاش الفلبوني ثلثي عمره عديم الاضراس الا سنا واحدا طويلا في مقدمة الفك الاعلى فكان اذا سألوه لماذا ابقيت على هذا السن يا عم اسطفان اجابهم « ابقيته خصيصا نكاية باطباء الاسنان » .

وسأله آخر ذات السؤال فقال « ابقيته لاعض به الاصابع البخيلة .. »

واتصل به مرة ان « متري الشويري » احد كبار الاغنياء في الجالية يعالج سكرات الموت من مرض الم به فكان للخبر وقعه الطيب لدى الفلبوني .. ومضى (بدوزن) قصيدة الرثاء المعهودة مضيفا اليها اسم الشويري مؤملا ان يجني من ورائها ما لا يقل عن المائة ليرة نظرا لثروة الرجل ولكن سرعان ما خاب ظنه فقد بدأ الرجل يتقدم الى العافية ولما بلغ الخبر شاعرنا اسطفان (خبط) الطاولة بيده وزمجر وقال : « غير فكرو الملعون .. »

والان . ايها القارىء الكريم صفحا عما اقدمه من حين الى آخر من نوادر شعراء المهجر وما رافق حياة بعضهم من شؤون وشجون وذلك اني عايشتهم اعواما طوالا وعرفت من اوضاعهم الخاصة ما لم يعرفه سواي ممن كتبوا عنهم او عن بعضهم واهملوا البعض الاخر .

جبيل — لبنان — شكر الله الجر

بهجت مهندس معماري قدير . انه ضئيل الجسم ، ولكنه ذكي ، كبير الراس كأن رأسه مستعار من رجل ضخم الجسم . وانفه طويل وشامخ . من ينظر اليهم يتوهم انه حشي كبرياء وعظمة . وبهجت على ضآلة جسمه يوحي الى محدثه بجمود كتفيه ، ولمعان عينيه ، وثبات وقفته ، وغليونه الهابط من بين شفتيه في اناقة ، وقبعته العريضة السميكة — بأنه رجل مهيب ممتلئ العقل بالمعارف والرزانة والبراعة . صوته هادئ ومنخفض لا لانه ضعيف بل لان ميزان نطقه دقيق . وحركاته خفيفة بطيئة لا لانه كسلان بل لانه مهذب رقيق الحساسية . ونظراته ثابتة لا لانه وقح بل لانه يثق بنفسه وبتأثيرها في نفس غيره . وهو يرتدي بنطلونا قصيرا من الكاكي لا لانه بخيل بل لانه نشيط يهوى العمل . ويضع على رأسه قبعة ضخمة لا لانه يتشبه برجال الاعمال الكبار من الاجانب بل لانه يخشى ان يؤذي حر الشمس رأسه . وهو يدخن الغليون لا لان منظره يكسب صاحبه وجاهة واحتراما بل لان السجائر تضيع اوقاته باخراجها من علبها واشعالها .

بهجت متكبر ، يتجنب الناس ، جاف الحديث ، جلف يجرح عواطف محدثيه بلا اهتمام ولا اكتراث . اجنبي الطباع ، يحتقر اصدقاءه ومعارفه .

(بهجت يثق بنفسه ، ولا يصادق من الناس الا اولئك الذين ينسجم معهم في الطباع والخصال . يقف من يعتدي عليه بلسانه عند حده مستخدما في ذلك قوة شخصيته . كثير الاحتراس من معارفه والتحفظ من اصدقائه ، ولكنه لا يسيء اليهم قبل ان يسيئوا اليه . قضى شطرا من حياته في تلقي العلوم في احدى الجامعات الاوروبية . وقد اكتسب ممن خالطهم من التلاميذ والاساتذة طباعا وخصالا رأى انها تهذب من نفسه وتغيره في تصرفاته في الحياة ، وانها لا تقضي على طباعه وخصاله العربية بل تزيدها ثروة واهمية) .

انه مقاول ناجح . يتعاقد معه اصحاب الدور والعمارات لانه مستقيم في معاملته لا يغش ولا يخدع ولا يكذب ، بعكس كثيرين من المقاولين . وهو وان كان غير راض عن اسعد البناء الذي استخدمه عنده ولا عن هاشم مساعده ولا عن العمال الاخرين الذي يعملون في ورشته ، الا انه لا يجد بدا من استخدامهم وقبولهم على علاتهم ، لان معظم البنائين والعمال يشبهونهم طباعا وخلقا .

ذهب ذات مرة الى مكان عمله فلم



بقلم عبد الحميد الانشاصي

يجد من العمال احدا مع انه مرارا أعلمهم ان العمل عنده ليبتدئ من الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحا . غاظه ذلك منهم حتى لقد حدثته نفسه بطردهم واستبدال غيرهم بهم . غير ان سخطه لم يلبث ان فتر قليلا ، ورأى ان يلفت نظرهم الى تقصيرهم واهمالهم ، وان ينذرهم بالاستغناء عنهم ان هم استمروا على التأخر عن مباشرة العمل في الوقت المعين من صباح كل يوم .



راح يسرح نظره في الجدران التي بنوها من العمارة التي تعهد بتشييدها شغلا لنفسه عن اجترار افكاره الثائرة الساخطة . وقد اراد في الوقت نفسه ان يتأكد من ان بناءه قام بواجبه خير قيام ولم يهمل شيئا مما القي على عاتقه من واجبات ومسؤولية .

وانه لكذلك اذ قدم احد العمال حاملا صرة طعامه تحت ابطه . ولما اقترب من المهندس القى عليه تحية الصباح بصوت فاتر يفتقر الى حرارة القيام بالواجب وجراة النشاط والاخلاص . فرد بهجت التحية من انفه ، وقد ثبت في عيني العامل نظرة ساخطة متألمة محاسبة . ولكن العامل تجاهل نظرة المهندس ، ومضى الى جانب من العمارة هربا من نظرته النارية .

وبعد قليل قدم ثلاثة من العمال . فألقى عليهم بهجت نظرة كتلك التي القاها على العامل الاول . ثم جاء الباقون من العمال وبينهم هاشم مساعد البناء . واخيرا ظهر وجه البناء وهو يمشي بسرعة ليوهم المهندس انه وان تأخر لا يرضى ان يضيع وقته سدى . جرى كل ذلك وبهجت واقف في مكانه ينظر ولا يتكلم . غير ان صمته وان طال قد افهم العمال انه ساخط عليهم لتأخرهم عن ميعاد مباشرة العمل ، وانه لا بد ان يحاسبهم على اهمالهم فيما بعد . ولكن البناء اسعد تقدم الى المهندس ، وقد صمم ان يفاتحه بسبب تأخره ، فقد خطر في باله انه ان ظل ساكتا كان ذلك اعترافا منه بانه مقصر في القيام بواجبه ، ولم يدر ان عماله مثله جاءوا متأخرين عن ميعاد العمل .

قال اسعد للمهندس :

— آسف على تأخري عن القدوم في ساعة مبكرة من صباح هذا اليوم ، فقد تركت ابني مريضا في المنزل . احضرت له دواء مؤقتا ليسكن المه . وبعد الظهر اذهب به

الى الطبيب لمعالجته .

(لقد تأخرت في النوم . كنت مستغرقا في النوم لاني قضيت الليلة الماضية ساهرا . فلا تؤاخذني) .

فهز المهندس رأسه هزة افهمته انه كاذب فيما يقول ، وانه قد تعود التأخر كل يوم دون أن تكون هناك اسباب معقولة لتأخره . ثم أومأ براسه الى العمال ، وقال بصوت بدا ظاهره خاليا من الانفعال وباطنه مفعما بالسخط :

ـ وهؤلاء ؟ كل العمال تأخروا كما تأخرت .

(انك كاذب ، ما في ذلك شك) .

فرفع اسعد حاجبيه في استغراب ، واجال نظرة مخطوفة في وجوه العمال ، ثم قال للمهندس :

ـ كلهم ؟ كلهم تأخروا ؟

(انني اعرف ذلك ، ولكن ماذا أفعل ؟)

فهز المهندس رأسه ، وبعد هنيهة اجاب في رزانة :

ـ نعم كلهم . لقد جئت الى هنا في الميعاد المعين فلم اجد منهم احدا (كلكم تستحقون الطرد) .

ثم رسم على وجهه ابتسامة بلا لون ولكن لها معنى ، وقال بنفحة تهكمية :

ـ هل كل هؤلاء تركوا ابناءهم مرضى في بيوتهم كما فعلت أم ؟ ..

(اجبني ايها الكذاب) .

فأجابه أسعد بنظرة زائغة هاربة ، ثم قال بنغمة رخوة :

ـ عجب ! انني لم اكن اتوقع منهم ذلك .

فقال بهجت بنغمة جازمة :

ـ لماذا تأخروا ؟ انظر اليهم . الا تراهم واقفين بلا عمل ؟ لقد جاءوا قبل وصولك بوقت قصير . كانوا في انتظارك ـ في انتظار توجيهاتك واوامرك . هل تعودوا التأخر كل يوم ؟ وهل تعودت التأخر معهم ؟ كان ينبغي لك ان تاتي قبل ان يأتوا لكي يقتدوا بك . فأنت بناء وهم عمال . انت المسؤول ، ولكنني اراك لا تقدر المسؤولية ولا تريد ان تتحمل المسؤولية .

(انك لست جديرا بلقب معلم . انك تستحق الطرد) .

فقال اسعد بنغمة ضعيفة مهزومة :

ـ أؤكد انها المرة الاولى التي تأخرت فيها انا والعمال عن العمل .

(كل العمال يتأخرون . هكذا جرت العادة في البلاد كلها . فهل تريد ان تغير عاداتنا ؟)

قال المهندس مقاطعا :

يجب أن يكون الانسان صريحا . انني اكره كتمان الحقيقة .

فقال هاشم مساعد البناء بصوت غليظ قوي :



عبد الحميد الانشاصي

•

ـ الحق اننا نتأخر كثيرا يا سيدي .. وأود ان اعلمك ان كل العمال يتأخرون عن مواعيد أعمالهم .

(افعل بنا ما تشاء. اننا لا نكترث لك) .

فرفع المهندس رأسه في انفة وقال :

ـ ماذا تعني ؟

(ماذا تعني أيها الوقح ؟)

فصوب البناء وعماله نظراتهم الى هاشم ليروا ماذا يكون جوابه . انهم يعلمون انه جريء لا يخشى احدا ، وانه خير من يمثل العمال في ثورتهم وتذمرهم . فقال هاشم بنطق واضح ثابت :

ـ اننا يا سيدي عمال . والعمال يقضون نهارهم في جهد وكد . اننا نرهق اجسامنا في سبيل لقمة العيش لنتناولها نحن واولادنا . ولا يعرف ما يعانيه العامل من تعب ومشقة سوى عامل مثله . واعتقد انه ليس بكثير علينا ان نتأخر في كل صباح نصف ساعة . اننا أرباب اسر مؤلفة من عدة افراد . وكلهم في حاجة الينا . ولا تدار الاشغال المنزلية الا بجهدنا واعمال فكرنا . وليس في امكان نسائنا ان يضطلعن بما نضطلع به منْ اعباء الاسرة . بعض اولادنا يقعون فرائس للمرض . وأسرنا في بعض الاحيان تحتاج الى الطعام . وقد تنشأ مشاكل من احتكاك اولادنا او نسائنا بأولاد الجيران ونسائهم ، فلا نجد بدا من حل تلك المشاكل . وهذا يستغرق وقتا طويلا . اظن ان هذه الاسباب كافية لان تجعلك تعذرنا ان تأخرنا عن ميعاد عملنا .

ولم يكد مساعد البناء يفرغ من كلامه حتى رمقه العمال باعجاب واستحسان . ثم وجهوا نظراتهم الى المهندس ليروا ماذا يقول . فقال بهجت مقطبا بنغمة حازمة :

ـ ان للعمل وقتا كما ان للمنزل وقتا . كل شيء له وقت . ولا اريد ان تخلطوا هذا بذاك . انكم تعلمون انكم تتسلمون مني اجوركم لقاء اتعابكم في مدة معينة من الزمن ، وانني مرتبط بتعهدات لاصحاب الابنية . لذا يجب ان يتم كل شيء بنظام . يجب ان يسير عملنا كما يسير عقرب الثواني في الساعة . استعملوا قوة ارادتكم . بالارادة يتم كل شيء . ان النجاح والتقدم في الامم مبنيان على الارادة والنظام . وبغير هذين لا نبلغ من المدنية

والتقدم شيئا ، ونظل ضالين في هذه الحياة . انتم مالكم ولغيركم من العمال ؟ قوموا بواجبكم لكي يقتدي بكم غيركم . هذا ما اريده لكم : ان تكونوا قدوة لغيركم وفخرا لي ولأمتكم . لذا ارجو ان تباشروا العمل في الوقت المعين لئلا اضطر الى انذاركم بحسم شيء من اجوركم
فطأطأ العمال رؤوسهم اقتناعا وخجلا ، ومضوا لمزاولة اعمالهم .

★

وفي ذات يوم خرج بهجت الى ورشته فوجد بعض العمال يخلطون الحصباء بقليل جدا من الاسمنت على غير عادتهم ، ولم ينتبهوا الى انه لاحظ ما يفعلون . فاستغرب عملهم ذلك ، وقال للبناء في سخط :
– ماذا يفعل العمال ؟
(أنائم انت ؟)
– ماذا يفعلون يا سيدي ؟ لست ادري ما تعني .
– الا ترى ؟ ان كمية الاسمنت التي يؤلفون بها الجبلة قليلة جدا . ولست ادري لذلك سببا .
(هذه جريمة يجب ان يحاكموا عليها) .
فقطب اسعد تقطيبا تمثيليا ، وقال كالمستغرب :
– كمية قليلة جدا من الاسمنت ! عجب ! لم يكن لي علم بذلك .
فقال المهندس وهو يهتز سخطا :
– انني لا اسمح لاي عامل انيفعل ذلك في ورشتي . ان في ذلك تشويها لسمعتي . يجب ان اطرد العمال جميعا . انهم لا يستحقون ان يعملوا تحت ادارتي . تعال ! هيا نذهب اليهم .
(انهم لئام أنزال . يجب ان يكون مأواهم السجن لا المنزل) .
ومضى المهندس والبناء الى العمال الذين يؤلفون الجبلة . ولما اقترب منهم صاح بهجت بهم :
– توقفوا ! ماذا تفعلون ؟
(هل انتم مجانين) .
فقال له احدهم :
– بم تأمر يا سيدي ؟
(لقد اطلع الخبيث على عملنا . وقعنا في الفخ) .
– ماذا تفعلون ؟ ان الجبلة التي تؤلفونها فاسدة ولا تصلح للبناء . ابهذه الكمية الضئيلة من الاسمنت تخلطون الحصباء ؟ ماذا جرى لكم ؟
(اصوات من الداخل : اخرجوا من هذه الورشة يا لئام ! ان هذه مؤامرة دبرتموها لتشوهوا سمعتي. انا فاهم . انكم تكرهونني لانني احاسبكم على تأخركم عن ميعاد القدوم لمباشرة العمل في الصباح . هذا هو السبب . تريدون ان تنتقموا مني أيها القذرون . ولكنني اعرف كيف أنتقم منكم جميعا) .
(منظر في الداخل : يصفع البناء ومساعده ، ويركل العمال بقدمه وهو يلعن ويصيح . ثم يأتي صاحب العمارة ويطلع على الحقيقة ، فيقول له : الحق عليهم . يجب ان ترفع قضية ضدهم . وأؤكد لك انك ستنجح في تلك القضية وتزج بهم في السجن) .
وبعد قليل تقدم اليه هاشم ، وتأبط ذراعه في جراة ، ثم مضى به الى ناحية ، وقال له بصوت منخفض وهو يبتسم :
– الا تدري لماذا فعلنا ذلك بصاحب العمارة ؟ لقد ضن علينا بخروف يذبحه لنا بعد ان عقدنا بناءه كمّا يفعل كل انسان يتم عقد بنائه ، فانتهك بذلك العادة . وكما ضن علينا بالخروف ضننا عليه باخلاصنا، فخلطناالحصباء بقليل من الاسمنت.
فصاح بهجت ثائرا :
– ماذا تقول ؟ كيف تتصرفون كما تشاءون ؟ انا المسؤول عن كل شيء هنا . انني احاسبكم على هذا العمل . يجب ان تتوقفوا عن العمل في الحال . هذه خيانة . ان صاحب العمارة ليس ملزما بأن يذبح خروفا لكم . انه حر في تصرفاته . ليس الخروف شرطا من شروط الاتفاقية التي عقدت بيني وبينه .
فضغط هاشم ذراعه في قوة ، وقال بصوت هادىء :
– اسكت لئلا يسمعك الناس فتسقط من عيونهم وتبور . لقد انتقمنا من صاحب العمارة وقضي الامر . وليس لك الان الا ان تكتم الامر عن الناس كما كتمناه والا هلكت افاهم انت ما اقوله لك ؟

★

وفي ذات يوم اخذ بهجت يتفقد العمال فوجدهم متجمعين حول احدهم . تقدم اليهم ليتعرف الخبر، فانفضوا عن العامل . وقال بهجت :
– ما المسألة ؟
فلم يجبه احد بكلمة . فاستغرب المهندس ذلك منهم وقال للبناء :
– ما المسألة ؟
(ايها الوقحون !) .
هم اسعد بالاجابة ، غير انه لم يلبث ان لاذ بالصمت . فقال المهندس :
– ما بالك لا تجيب ؟ اقول لك : ما المسألة ؟
(اتجترىء على عدم اجابتي أيها الوقح ؟)
وبعد برهة اجاب اسعد بصوت ضعيف ينم على انه لا يرغب في الاجابة :
– سل هاشما .
– أسأل هاشما ! ما بال هاشم ؟
(قل ! انطق !)
– لقد وقع شقاق بينه وبين احد العمال .
والقى المهندس نظرة فاحصة على العامل . دقق النظر في وجهه وهو يدنو منه فوجد انفه مهشوما والدم يسيل منه . فبدت على وجهه علامات العطف على ذلك العامل والسخط على الجاني . قال لهاشم :
– ماذا فعلت بذلك العامل ؟
(هذه وحشية منك . أمجنون انت ؟ لقد أتلفت انف الرجل) .

حديث خاطف

صوت كأحلام المسا ء مرقرق الرعشات لاهف
حملته امواج الاثيـ ـر الي عبر شريط هاتف
قد ضم في طياته شوقا الى النعماء عاصف
هل يطلب النعمى معي وحديثنا كالبرق خاطف

هذا الحديث المترف النغمات معطاء وآسر
من أين ؟ كيف اجتاز أسواري وما انصاعت لقادر
ان ضيعته مسامعي لكأنه اشراق خاطر
سيعيش في قلبي ندا ء فاغم النفحات عاطر

همس الى ايقاعه أصغيت في صمت العشايا
رجعت في أصدائه طيفا لهاتيك الحكايا
المتته مترفقا خبأته بين الحنايا
سرا كأسرار السما ء وكابتهالات البرايا

دمشق سلافة العامري

فأجابه هاشم في هدوء وبلامبالاة كأنه لم يأت شيئا غريبا يلام عليه :

– وما دخولك انت بيني وبينه ؟

(من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه) .

– هه ! انني أنا المسؤول عنكم جميعا . فما هذا السؤال الوقح ؟

والقى على هاشم نظرة نارية متعالية . فقال هاشم بصوت قوي :

– اننا اخوان ، وسيجري الصلح بيننا وننسى كل شيء .

(هل جئت لتفسد بيني وبين صديقي . انه صديقي وان أسأت اليه) .

ولكن الصلح لا يصلح ما افسدته . لا بد من دفع تعويض لذلك العامل – تعويض عن انفه المهشوم . وان لم تفعل ذلك ظل حاقدا عليك .

(هذا ما يقتضيه العدل والانسانية يا وحش) .

فصوب هاشم الى المهندس نظرة شزراء وقال :

– انك لست قاضيا حتى تقرر ذلك .

فشعر بهجت بنخسة في قلبه تألما وقال :

– انني تاركك لشأنك ، وسترى ما يحدث لك .

(وحش ! منحط !)

ثم ترك المهندس هاشما في مكانه، ومضى في سبيله . فلحق به أسعد وقال له :

– انك لا تعرف هاشما . لقد كان خيرا لك لو انك لم تحاسبه على عمله .

ثم مضى اسعد الى هاشم ، فقال له هذا :

– ان هذا المهندس يعد نفسه فيلسوفا . انني اعرف كيف اعامله . امثال هذا الرجل المتعجرف المتكبر لا يحترمون الناس الا اذا ديسوا تحت الاقدام . لم يبق احد يعاكسني سوى هذا الرجل الاجنبي الذي يرتدي البنطلون الكاكي القصير، ويدخن غليونا كوجهاء الانجليز ، ويثور على عاداتنا العربية المقدسة التي درج عليها آباؤنا واجدادنا . ان رجلا كهذا لا يستحق ان يعيش بيننا . انه ليس مثلنا .

وبينما كان بهجت واقفا في أعلى العمارة وقفة متطرفة وهو يتفقد العقد اذ صعد اليه هاشم ، وقد اعتزم ان يأتي امرا فظيعا . اقترب من المهندس وقال له :

– انظر الى ذلك الجانب من العمارة . انه منحدر قليلا عن مستوى السطح .

فالقى بهجت نظرة على ذلك المكان الذي يشير اليه اصبع هاشم وقال :

– أين هو ؟

– هناك ، الا تراه ؟

(مت يا غبي !)

ثم دفع المهندس بيده القوية ، فهوى الى الارض حيث غدا جثة لا حراك بها .

وبعد ذلك هبط هاشم درج العمارة وقال لزملائه :

– لقد زلت قدم المهندس فهوى الى الارض .

عمان عبد الحميد الانشاصي



عروبة لبنان .. تطورها في القديم والحديث

دراسة تحليلية ـ تأليف محمد جميل بيهم ـ ٢٣٠ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع دار الريحاني ببيروت ١٩٦٩ .

لم أمارس اللقاء ممارسة أيام بالعلامة شيخ الادباء بلبنان الاستاذ محمد جميل بيهم الا في مؤتمر الادباء ببلودان مصيف الشآم ، اذ كنت من الوفد السوري الذي أنس بأدباء العالم العربي وشعرائه ومفكريه في الاماسي الفواحة من ربيع بلودان الجبل ، الذي يسيل عذوبة ماء وهواء ويفيض بالروح والريحان ، فكان الاستاذ الجليل « محمد جميل بيهم » في جلسات متواليات رئيسا للمناقشات ومديرا للنقد والتعليق على المحاضرات فادار ذلك بحكمة الشيوخ وعزيمة الشباب ، وكنت أعتز بلقائه في بيروت بمنزله ايام الحياة الخافقة بقرينته المثلى بنت الشآم ونابغة نسائها السيدة « نازك العابد » نضر الله عظامها ، فهو يعيش بعدها بين كتبه يناجي أفكارها ويستمع الى خواطرها ، والكتب كما يقول «فولتير» أناس تكلمنا وتحادثها في دعة وصمت ومودة .

ولقد أفاض علينا الاستاذ « بيهم » بكل كتبه التي ضمت روائع فكره وخطرات أدبه ودراساته الاجتماعية والسياسية والقومية التي بلغت عشرين ونيفا وتعاد طبعاتها منذ سنة ١٩٢١ حتى عامنا الماثل ، وقد رحت أتمثل امثاله من ادباء الفرنجة المعاصرين الذين بلغوا سن التكامل مثله في التأليف ، كيف يكرمهم اقوامهم فتمنيت ان يحظى وامثاله في لبنان والديار العربية بمثل ذلك التكريم ، فانا اتساءل متى يتاح لنا ان نتكلم في تكريم الرئيس الاستاذ العظيم الدكتور فؤاد افرام البستاني في يوم مشهود تجيء اليه وفود البلاد العربية والمستشرقون لمشاركة قومه الواعي بتكريمه وقد أعطى البلاد العربية ولبنان ثمرات فكره منذ شبابه حتى اليوم ، وكذلك متى يكون للاستاذ الجليل «محمد جميل بيهم » يوم تكريم كبير مشهود ، فان عناية الامة العربية بمفكريها المعاصرين زهيدة ويعوزهم حدبها عليهم ، فنسأل الله سبحانه ان تنجاب الغيوم الجائمة لتفرغ لمثل هذا التكريم الذي اقترحه وألح في اقتراحه ، ولعل صديقي القديم صاحب الاديب الاستاذ الكبير « البير اديب » أعزه المولى يحسب اني أنسى الدعوة المجددة الى تكريمه بيوبيله المنتظر ، فان له الاثر الكافي في تألق الادب الحديث على حوض الابيض المتوسط حيث يطل لبنان بجبله الاولمبي مزدهرا بالشعر والادب والفلسفة .

وما احسبني الى ذلك بعدت عن الكلام على هذا الكتاب النفيس الذي اخرجه للناس مؤلفه الكبير الاستاذ « بيهم » فجعله دراسة تحليلية تناول فيه تاريخ العروبة في لبنان الاشم قبل الاسلام وبعده ، ولبنان الحبيب عريق في دهر الوجود فقد وجدت في التوراة بانشودة الاناشيد التي قمت بترجمتها الى الشعر العربي ووقفت دون نشرها تصويرا لمباهج ارز لبنان اذ كان النبي سليمان العاشق ، يطمع محبوبته بعمل سرير لها من اخشاب الارز المجلوبة من لبنان ، أما في عصور الاسلام فان صاحبي (١) أبا الطيب المتنبي قـر بجبال لبنان وكان الثلج جاثما عليها فطرح للدهر الذي يروي شعره ببيتين في لبنان وثلجه حيث يقول :

وجبال لبنان وكيف يقطعها
وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها علي مسالكي
فكأنها ببياضها سوداء

وكان يخترقها ذهابا الى كبير الصوفيين ابي علي الاوراجي ، ولعله كان بسيف بيروت أو بجهة اطرابلس ، ويذكرني شعره بتفاح لبنان ، فيقول في وصف خد حسناء شآمية تيمته حبا وقد تكون غيرت مجرى حياته :

شـامية طالما كلفت بها
تبصر في ناظري محياها
حيث التقى خدها وتفاح
لبنان وثغري على حمياها

ولقد سلسل الاستاذ بيهم البحث في عروبة لبنان في الاسلام من العهد الراشدي حتى العصر الاموي وفي العصور العباسية آخذا بتلابيب السند والرواية والاستشهاد العلمي ، وقد كان أسلوبه الدائم في تواليفه هذه المنهج القويم والشرعة الواعية التي تؤديها ، فهو لا تأخذه تلاحين الادب فتلهى آثاره عن التحقيق العلمي وهو جاحظي النهج اذ كان الجاحظ بقيد ادبه بالعلم والتحقيق الفكري .

وحين مارس في بحثه الكلام على عروبة لبنان في زمن الفاطميين والحروب الصليبية وعهد المماليك أعطى قراءه نطاقا وسيعا تاريخيا في تعاقب الاحكام والازمان على لبنان . وجعل في كتابه فصله الثاني موقوفا على لبنان زمن العثمانيين ، ولئن كان لبنان فيما سبق من العصور حفيظا من عروبته لاصالتها فيه فان عهود العثمانيين كان من دأبها محو العروبية عن بلاد العرب ، وان كان يروى عن الخليفة سليمان القانوني او خليفته السلطان سليم انه كان يبغي تعريب الترك ، بينما كانت السياسة الاستعمارية للعثمانيين هي تتريك العرب ، وقد بطش السفاح التركي بشهداء العروبة بلبنان وسورية سنة ١٩١٦ اذ وجدهم سدا منيعا دون رغبته هذه الطائشة .

ووقف المؤلف الجليل فصله الثالث من كتابه ، على لبنان والشام بانهما صنوان في التاريخ وان عروبتهما وعروبة فلسطين كالجبال الرواسخ لا تزعزعها اعاصير الوجود .

ثم مضى المؤلف بوعي في الحكم وعدالة في الفكر يؤرخ عروبة لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الكبير ثم في زمن الامير الشهابي الكبير بشير .

وقد وفق المؤلف بأن ينقل قراءه الى قصر بيت الدين حيث كان يجثم على قنن لبنان امير ذو اللحية المفروشة على صدره ، الذي كانت عيناه تشعان بشعاع كأنه السحر من هاروت وماروت وليت الامير مصطفى الشهابي كان حيا فيقرأ هذا الوصف عندي لجده الجبار .

وجعل الاستاذ بيهم خاتمة كتابه عن وضع لبنان بمثوله الحاضر من التوقد الفكري والنزعة القومية العربية الرائعة والالفة التي لا تنفصم بين مواطنيه وكلهم سدنة لهيكل العروبة المقدس .

وقد تناول بحثه من وجهة السياسة البحتة والتطور الاجتماعي ، وكنت اوثر ان يفيض كالعهد به في ذكر عروبة لبنان التي قامت على لغة العرب الخالدة ، اذ كان ائمة اللغة والادب وطائفة من أكابر شعراء العروبة قد طلعوا من لبنان الاشم كمطالع الصنوبر فيه ، وانا اسمها المظلات السماوية ، فكان الادب اللبناني مظلة ذات ظلال وارفة في العالم العربي ، فان العروبة في كل بلد عربي لم تكن لترسخ الا برابطة الافكار العربية والاقلام اللغوية ، وعروبة لبنان في العصر الحديث قد بناها اليازجيان والشدياق والبستانيون والشرتونيون ومن الفوا المعجمات ودائرات المعارف . وبناها الاشياخ : عبد الرحمن سلام

والفلايني والزين وسواهم .

ولولا ان يقال اني أطري المعاصرين من اصحابي واصدقائي لاستوفيت الكلام على الاحياء من اساتذة جامعيين وشعراء وصحفيين وكلهم بصم على لبنان طابع العروبة الابدي .

وقد دعم المؤلف العلامة كتابه بالمخطوطات النادرة والصور والمصادر العربية والفرنجية وبثبت علمي للاعلام .

فلصديقي الاستاذ الاجل « محمد جميل بيهم » هذه السانحة التي أكفر بها عن تقصيري في الكتابة عن تواليفه الخالدة التي تعد مكتبة حافلة للفكر والادب والاجتماع .

---

(١) للدكتور زكي المحاسني كتاب عن المتنبي طبع ثلاث مرات في دار المعارف بمصر وطبعته الثالثة ١٩٦٩ جاءت بخمسة آلاف نسخة (الاديب).

دمشق　　　　زكي المحاسني

●

موسوعة العتبات المقدسة

في عدة مجلدات ـ باشراف جعفر الخليلي ـ مطابع بيروت

لئن وضعت جوائز تقديرية لما نشر خلال القرن الاخير من كتب قيمة فان « موسوعة العتبات المقدسة » ستكون جديرة بالحصول على نصيب حسن من هاتيك الجوائز ..

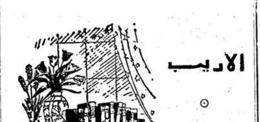
اما هذه الموسوعة فهي عشرات من المجلدات الباحثة في تاريخ العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء وخراسان والقدس ومكة المكرمة ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من المدن الاسلامية ..

وقد بدىء باعداد هذه العملية الضخمة في بغداد من قبل دار التعارف التي يديرها ويشرف عليها الاستاذ جعفر الخليلي ، وهو شخصية عرفت بطول الباع في ميادين حضارية وثقافية عديدة فلقد اشتهر بكتابة القصة ، وعمل في حقل الصحافة اليومية والاسبوعية اذ اصدر اكثر من صحيفة في بغداد والنجف ، ونشر من مؤلفاته جمهرة كبيرة دلت على حصافة وثقافة ، وقرض الشعر وكتب في ترجمة الاعلام الذين عايشهم ووقف على نمط سيرتهم في الحياة ..

ان كل ما كتبه الخليلي حري بالاعجاب المتواصل ، ولكن مشروعه الجبار الذي يحمل عنوان « موسوعة العتبات المقدسة » سيكون اكثر شيء اعجابا واكبارا لدى من يعنيهم هذا الامر ، ولدى من لا يعنيهم ايضا ..

ويبدو ان النية متجهة الى ان يكون الحديث عن كل واحدة من هذه العتبات مستغرقا عشرة اجزاء ان لم يكن مستغرقا اكثر من ذلك .. وهذا يدل على اجتراح أعجوبة في التاليف المعاصر تستحق أن تكون حديث المكتبات الذي لا ينقطع .. وقد صدر من هذه الموسوعة خلال ثلاث سنوات جزءان من قسم النجف وجزء واحد من قسم كربلاء والكاظمين وخراسان وسامراء وجزء واحد من قسم مكة المكرمة .. وكل هذه الاجزاء في حجوم متماثلة وان كان بعضها تقل صفحاته شيئا قليلا عن البعض الاخر ..

بين يدي الان شيء من هذه الموسوعة هو الجزء الاول من قسم مكة المكرمة في مجلد يتالف من نحو ٣٨٠ صفحة ـ ١٦/٥ × ٢٣/٥ سم ـ والجزء الثاني من قسم النجف وهو يقع في اكثر من ٣٢٠ صفحة والجزء الاول من قسم الكاظمين ويقع في ٣٢٠ صفحة .. والجزء الاول



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون　الادارة ٢٢٣٨١٩　Dir : 223819　Tel
　　　　المنزل ٢٢٥١٣٩　Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

ألبير اديب

من قسم خراسان وهو في ٣١٢ صفحة .. والجزء الاول من كربلاء وعدد صفحاته ٣٩٦ والجزء الاول من سامراء وعدد صفحاته ٣٣٦ ..

وقد حفلت هذه الاجزاء بمعلومات نادرة باهرة بحيث يبيت القارىء وهو يستحث نفسه على قراءتها جميعا في مجلس واحد ..

وقد كان من محاسن موسوعة العتبات المقدسة انها جمعت شتات جمهرة عظيمة من المعلومات المتنوعة المتناثرة في صفحات الكتب والمراجع من مخطوط ومطبوع ، وانها امكنت للقارىء الحديث الوقوف على ما اودع السياح الاجانب في بطون رحلاتهم من آراء وملاحظات ومباحث خططية واجتماعية دونوها في فترات تاريخية موغلة في الغموض .. وبذلك لقحت المصادر العربية بمصادر غربية لم يلم بها الا النزر اليسير من متقني اللغات الاجنبية ..

كان اسلوب عرض المواضيع في الموسوعة قد استثار اعجابي فهو أسلوب قويم بعيد عن جمود الفقه وجفاف ما يسمى بعلم المنطق .. وكذلك القول في ذكر الخلافات الناشبة بين الرواة والتعليق على مغامز السياح الاجانب فانه كان اسلوبا بالغا من الرصانة والتثبت أقصى اطرافهما ..

ولم يكن القصد من وضع هذه الموسوعة ـ على ما يبدو ـ البحث التاريخي وحده ولا سرد السير الشخصية المسهبة بل انها جالت على نواحي ثقافية متعددة فباتت طرازا من التاليف النفيس الشهي الذي يجل عن الوصف ..

يتناول الجزء الاول من قسم مكة مباحث مسهبة في تاريخ مكة القديم منذ اول تمصيرها حتى قيام الاسلام بقلم الاستاذ جعفر الخليلي مؤسس الموسوعة والمشرف على اعدادها وقد استغرق ذلك صفحتين ومئة صفحة .. ويلي ذلك فصل في مكان مكة من كتب الرحلات العربية للدكتور صفاء خلوصي ومن فصول الجزء المهمة ما ورد في الشعر قديما وحديثا من ذكر مكة وبعض اسبابها جمعها البحاثة الواسع الافق الاستاذ فؤاد عباس .. وكان اوسع هذه الفصول ما قام بترجمته من المصادر الاجنبية الاستاذ جعفر خياط من أخبار مكة واحوالها الواردة في عدد من المراجع الاجنبية فقد استوعب ذلك مئة وسبعا وخمسين صفحة ..

وكان من نهج الموسوعة هنا وفي كل أجزائها اثبات أقوال من كتب من الغربيين عن احوال مكة واحداثها وشؤون حجاجها دون طرح ما كانوا قد تحيزوا فيه واغرضوا .. وقصد الموسوعة من ذلك اعطاء فكرة قريبة من الواقع عن الانطباع المرتسم في اذهان مؤرخي الغرب وساسته ورحاليه عن هذا البلد وقطانه ..

ويبيت القارىء كثير الدهشة حين يلم بالجزء الثاني من قسم النجف لما يرى من الاستيعاب الشامل لحضارة النجف العلمية وما استودع في خزائنها من كتل كتب وثروات لا تثمن بثمن وما كان قد أقيم على تربتها البلورية من مدارس ومنشآت فقهية ما تزال تموج بطلاب العلم واهله ..

ولا ادري شيئا عن محتويات الجزء الاول من هذا القسم .. فلعله تناول حديث ثورة العشرين وقادتها ممن كان يمت بعضهم الى هذه المدينة الكريمة ..

اما القسم الخاص بالكاظمين ـ وقد نشر منه جزء واحد ـ فانه حري ان يكون مرجعا حسنا في الوقت نفسه لبعض الجوانب من تاريخ بغداد اذ كانت الكاظمية وما تزال جزءا لا يتجزأ من بغداد ..

لا جرم ان عشرة اجزاء ضخمة تؤلف في تاريخ مكة وعشرة اخرى تكتب في تاريخ المدينة ومثلها عشرة في القدس وعشرة في النجف واخرى في الكاظمين وعشرات غير اولئك في بقية العتبات انما هو جهد اسطوري وصنيع فخم جبار .. وقد لاحظت من جولتي خلال تلك الاجزاء من الموسوعة ان هنالك غير واحد من المساهمين في تدوين فصولها منهم الدكتور اللغوي والمؤرخ البحاثة الاستاذ مصطفى جواد والدكتور المؤرخ حسين امين والدكتور الكاتب الاديب صفاء خلوصي ولكن الجائل الاول في هذه الحومة والآخذ بخطام الجواد السابق هو الاستاذ جعفر الخليلي أعانه الله على انجاز مشروعه هذا ومكنه من اخراجه في عهد قريب غير بعيد ..

بكين　　　　جلال الحنفي

•

آداب العشرة وذكر الصحبة والاخوة

لأبي البركات بدر الدين محمد الغزي
٩٠٤ هـ ـ ٩٨٤ هـ

تحقيق الدكتور عمر موسى باشا ـ ١٠٤ صفحة ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

قبل سنوات ، التقيت مع الباحث الدمشقي الدكتور عمر موسى باشا في كتابه « ابن نباته » ، وهو بحث جامعي رصين ، وكان ذلك اللقاء بداية معرفتي به ، ثم تهيأ لي ان التقي معه اليوم في تحقيقه لكتاب « آداب العشرة وذكر الصحبة والاخوة » من تاليف ابي البركات بدرالدين محمد الغزي ، وقبل البداءة في التعليق على الكتاب المذكور ، يجمل بي ان اشير الى هذه الجهود التي تبذلها المجامع اللغوية في العواصم العربية واحتفال المحققين المتازين بالتراث العربي ، ومساعيهم المشكورة في ميادين التحقيق العلمي ، فاذا كنا نجل هؤلاء الناس الثقات فليس في وسعنا أن نصمت عن عمليات التجهيل والشعيذات التي تخرج للقراء باسم التحقيق والنشر العلمي ، يصدرها للاسواق انفار من المثقفين ، لا يحسنون كتابة المقالة الانشائية او اقامة وزن بيت من الشعر .. فهذا الترخص في النشر والتحقيق فيه اثم وصوب فضلا عما فيه من استخفاف باذهان القارئين ..

ثم أعود فاقول : « كتاب آداب العشرة » في الاصل رسالة الفها بدرالدين الغزي في القرن العاشر الهجري ، في العصر المخضرم بين أواخر العصر المملوكي الثاني واوائل العصر التركي العثماني ، وقد شهد بدر الدين هذا فترة قلق في حياته خلال بعده وتشرده عن بلده ، ولم تمدنا المصادر ـ كما يقول المحقق ـ التي بين ايدينا بالعوامل الكامنة وراء هذا النفي ، وقد تبين انه كان للوزير العثماني أياس باشا اكبر الفضل في هذه الفترة من الاستقرار والاطمئنان النفسي ، مما اتاح لبدر الدين ان ينشىء رسائله ويسطر مؤلفاته الكثيرة ..

وقد اشار المؤلف نفسه في خطبة رسالته المخطوطة « ألزبدة في شرح القصيدة المسماة بالبردة » الى ان لعناية الوزير المذكور وحدبه عليه الاثر الكبير في انعاش نفسه وطيب عيشه .. ويبدو ان مصنف هذه الرسالة أراد بتصنيفها ان يمكن للقيم الاخلاقية في نفوس الناس ويرسخ الفرمات في وقت غلبت عليه التحولات وتارجحت فيه عوامل الطمانينة والاستقرار ..

ولقد كان من فضل الثقافة العربية الاسلامية ان تواجد بعض الاخيار فعملوا على احياء التراث العربي بجهودهم التصنيفية الهادفة ، وكان بدر الدين واحدا من هؤلاء ، فاستقى اقواله مما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف واستشهد ببعض الحكم المنقولة عن المتصوفة والفلاسفة ، واورد بعض الشواهد الشعرية لشعراء مغمورين ومعروفين.

وقد فطن المحقق الفاضل الى اهمية هذا النوع من الرسائل ، فعمل على نشر رسالتين للمؤلف بدر الدين ، الاولى « آداب المؤاكلة » من منشورات مجمع اللغة العربية ثم « آداب العشرة » والملاحظ في

الرسالتين المذكورتين ان المؤلف سلك في كتابتهما نسقا علميا ذاتيا في البحث والتاليف بعيدا عن الاسجاع والمحسنات والاستطرادات الموسوعية كما هو غالب على التصانيف السابقة ، وهذه ولا شك ظاهرة ادبية تستحق التنويه وتشير الى الطوابع التي سادت على طرق التفكير في تلك الحقبة من الزمن .. ورسالة « آداب العشرة » تؤلف الكتاب الثالث المختار من مجموع المخطوط الموجود في صورة المحقق وهو يضم عشرين رسالة مخطوطة ، وغاية المحقق من احياء هذه الرسائل المهملة ان يكشف عن جوانب مشرقة من حضارتنا السالفة كانت عرضة للاهمال والنسيان ، وفي الحق انها التفاتة بارعة قمين بالمحققين ان يترسموا خطاها ، ويزيحوا عن كنوزنا الدفينة غبار السنين المتراكم ..

ملاحظات منهجية وفنية :

يقع كتاب « آداب العشرة » بطبعته المحققة في (٨٠) صفحة ، اما الفهارس العامة فتبدأ من صفحة (٨٥) الى صفحة (١٠٢) وهي خاتمة الكتاب . ثم تنقسم الرسالة الى الابواب التالية : آداب العشرة ، آداب الصحبة ، آداب الجوارح ، آداب البواطن . وهذه بدورها تتوزع الى تفريعات بحسب الدلالات الاخلاقية والمقاصد الاجتماعية ، وعلى الرغم من غلبة الحس التصنيفي للمؤلف ، فاننا لا نعدم أن نرى هنا وهناك لمحات من ذاتية المؤلف وخصوصية التجربة الشخصية ، وكلها تنهض دليلا على صدق النية والنزعة الاخلاقية وحسن التصنيف والاختيار .. ولنا هنا ، بخصوص التحقيق ، بعض الملاحظات الفنية نسوقها اتماما للفائدة ، وهي بالطبع لا تغض من قيمة الجهد المبذول ونجملها فيما يلي :

١ ــ تميزت مقدمة المحقق بانها خلو من الاستقراء التاريخي لاصحاب السبق في كتابة الرسائل والمصنفات التي تتعلق بالصحبة والصداقة والعشرة ، ومن هؤلاء على سبيل التمثيل ابن قتيبة صاحب « عيون الاخبار » والتوحيدي الموصوف بالجاحظ الثاني وبخاصة كتابه الذائع الصيت « الصداقة والصديق » ونحسب ان ذكر هؤلاء الاعلام مما تتطلبه المقدمات العلمية .

٢ ــ رتب المحقق فهرس الايات القرآنية بحسب ترتيب السور المعروف في القرآن الكريم ، ورتب الاحاديث النبوية بحسب اوائل حروفها ، والمحقق هنا يجري على الطريقة الشائعة ، بيد أن هناك طريقة اخرى نرى فيها وجه الصحة وعموم الفائدة بالنسبة للباحث الذي يبحث عن آية يجهل سورتها مع علمه ببعض الفاظها ، ونشير هنا الى الطريقة التي اهتدى اليها بعد تجربة طويلة شيخ المحققين عبدالسلام محمد هارون ، وتقضي بترتيب الايات القرآنية في نطاق المواد اللغوية اعتمادا على بروز بعض كلمات الآية ، ومثل هذا يقال في ترتيب الاحاديث النبوية التي ينبغي أن ترتب حسب المواد اللغوية ايضا ينظر كتاب « تحقيق النصوص ونشرها » تاليف عبد السلام هارون ص (٨٩) وما بعدها » .

٣ ــ جاء ترتيب الشواهد الشعرية وفق الفهرسة التالية : صدر البيت ، القافية ، الشاعر ، عدد الابيات والصفحة ، واكمالا لهذا الترتيب نرى من المستحسن ان يضاف الى صاحب الشعر ترتيب البحور الستة عشر .

٤ ــ كان الاجدر بالمحقق وهو يقدم النص ، ان لا يغفل امرا يكاد يكون سنة متبعة في التحقيقات ، فقد جرت العادة ان يعزز المحقق النسخ الموصوفة بصور منقولة عن الاصل فيصور وجه التاب او بعض صفحاته وصفحته الاولى والاخيرة ، وهذا ما تفتقر اليه نشرة المحقق .

٥ ــ لا ادري لماذا ترك المحقق التعريف ببعض الاعلام في الهوامش في الوقت الذي عرف ببعضهم على الرغم من ذيوع شهرتهم ، فاذا كان قد ترجم للمدائني وسفيان الثوري والجنيد وغيرهم ، فان من باب اولى ان يترجم « لحمدون القصار » وهو غير معروف لغالبية القراء وقد ورد ذكره في صفحة (١٤) .. وحمدون القصار هذا (صوفي نيسابوري على مذهب « الملامتية ») وهو ابو صالح حمدون ابن احمد بن عمارة القصار ، صحب سلمان الباروسي وأبا تراب النخشبي ، مات سنة احدى وسبعين ومائتين . ومن اقواله : من نظر في سير السلف عرف تقصيره وتخلفه عن درك درجات الرجال . وقال : ان استطعت ان لا تغضب لشيء من الدنيا فافعل . « الرسالة القشيرية للامام القشيري ص ١٠٢ » قطوف من الرسالة :

ومن المناسب في هذا المقام ان أنقل الى القارىء المتطلع الى اقوال السلف هذه القطوف المختارة مما جاء في الرسالة :

ــ فمن قول النبي العربي في آداب العشرة وقد قيل له : ما خير ما أعطي المرء ؟ قال : حسن الخلق .

ــ ومن قول الامام علي بن ابي طالب في الحمد على الثناء : من لم يحمل اخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصفة .

ــ وقول بعض الحكماء من السلف : عاشروا الناس ، فان عشتم حنوا اليكم وان متم بكوا عليكم .

ــ وقال ابن الانباري في الحنين والنزوع الى مشاهدة الاخوان : من كرم الرجل حنينه الى أوطانه وشوقه الى اخوانه .

ــ وقال ابو محمد الحريري في التخلق بمكارم الاخلاق : كمال الرجل في ثلاثة : الغربة ، والصحبة ، والفطنة ، فالغربة لتذليل النفس ، والصحبة للتخلق باخلاق الرجال ، والفطنة للتمكين .

وبعد : فليس في الوسع الافاضة في الاقتباس « من رسالة آداب العشرة » وحسبنا في هذه العجالة ان ندل على النماذج الهادفة من الرسائل الداعية الى التمسك بالقيم الأخلاقية ، وان نشيد بجهد المحقق الفاضل الدكتور عمر ، وان نجهر بالدعوة الى نشر امثال هذه الرسائل الدفينة : فان في هذا النشر تصحيحا للموازين المختلة ، وتفويتا على الاعداء من أن ينالوا من مكرماتنا أو يغمزوا من صدق عزائمنا في ماضينا وحاضرنا معا .

البصرة ــ العراق   عبدالرحمن علي

●

ريـــاح كـانـون

رواية ــ تاليف فاضل السباعي ــ ٤٤٨ صفحة ــ حجم كبير ــ منشورات دار القصة العربية بحلب ــ طبع في بيروت

بعد مساجلات عنيفة ، على صفحات مجلة « الاديب » بيني وبين الاستاذ فاضل السباعي ، اخذت عندما حمل الي البريد : « رياح كانون » مهداة من صاحبها ، وموقعا عليها بقلمه ..

والذي زادني عجبا ، انني حينما قرأت ما قاله الادباء في آدب الاستاذ فاضل السباعي ، وجدتني من بين الذين قالوا رأيهم فيه ، وان كان فيه الاتهام الذي دفعت اليه وقتذاك ، عندما احتدمت المعركة ، واندلع لهيبها الذي اصاب طائفة من الادباء ، دخلت المعركة على غير انتظار ، ورمت بنفسها دون ما دعوة او طلب ادعاء ..

وليس شك في ان هذه المبادأة ، زادتني اصرارا على أن أقول كلمتي مرة أخرى في عمل ادبي ضخم ، توافر عليه ، أديب كبير ، حريص على المحافظة على السلفية الحبيبة .. ولا اكتم القارىء ، انني عشت اياما في هذه الصفحات التي نيفت على الاربعمائة بفصولها الاثني عشر ، واقسامها الثلاثة وخاتمتها في ساعاتها الاخيرة ، وهذا الثبت الذي حرص فيه الاستاذ السباعي على ان يدون فيه ما له وما عليه باقلام كثرة من الادباء ، تجمعهم الرابطة ، وتفترق بهم الاوطان ..

والمتتبع لادب السباعي ، والمحصي لانتاجه ، يجده لا يتوقف عند بلد

بعينه ،إذ يستقي من معين وطنه الذي ولد فيه ، وانما يجد : «الشوق واللقاء » و « حياة جديدة » و « مواطن امام القضاء » و « الليلة الاخيرة » و « نجوم لا تحصى » و « ثريا » و « ثم أزهر الحزن » و « الظما والينبوع » و « رياح كانون » قد ولدت في بيئات متعددة ، ومواطن متفرقة ، دليلا على ان المؤلف ، لا يتقيد بموطن ، او يتعصب لمكان ، فيخصه بقلمه ، او ينسج حوله الهالات ، اذ ليس بضار ، ان يحيك المؤلف رواية من مشهد رآه بالقاهرة ، أو يجمع خيوط قصة وقعت في درب من دروب سورية ، فالملهمات عنده كثيرة ، والملفتات أجل من أن يحصيها عد ، الا أن يكون قلم أديب ، أو شاعر مستلهم .

و « رياح كانون » سورية المنبع ، والمولد والمنشأ ، جرت حوادثها في أرض المؤلف وعلى مرمى بصره وبين يديه ، ان لم يكن قد لعب هو دورا بين شخوصها الذين كناهم ، ولم يفصح عن مسارهم ، أو تحديد معالم ادوارهم ، الا من خلال المساق الذي اكتنفه الجو السوري بكل اصطلاحاته ، وحواشيه ، واتجاهاته ، ومسمياته ..

يحدد الاستاذ فاضل السباعي روايته ، ويحصر كنهها في هذه السطور « ... وعب من رياح كانون العاتية . وفكر ، وهو يقرع الرصيف بقدميه : اني دفنت ، قبيل قليل ، املي تحت أنقاض اعتراف ما ! » .

وهذا الاعتراف الموغل في اللا محدود بعد أن حرص الفتى نفسه ، واتهمها بالغباء ، وامتلأ صدره مرارة ينحصر في :

ـ « كل ما بي ، اليوم ، يغري بالابداع : احساس بالضعة ، واحساس قبله بالاخفاق ، ثم احساس بالرفعة اخيرا » ..

وفصل الرواية الاول مليء بالحوار ، مشحون بهذه التساؤلات التي تفصح في أحايين كثيرة عن الاجابة على كل ما يدور من أسئلة ، أو ببرز من شكوك ، فدين الله لا يحرم الزواج بأكثر من واحدة الا ان يكون عدم العدل ، و « أبو عقيل » لا يهمه من امر التعدد الا سلفة على راتبه ، ولا يهمه التثليث بزوجة ، والتربيع بحليلة ، وان كان في عصمته اثنتان ..

والمؤلف يعنيه من امر هذا المشهد ، الحرص على اثبات ما دار في قاعة المحاضرات التي كشف فيها عن مدى ما يصيب المجتمع من الزواج الثاني ، الا ان يكون الانسال أهم غايات هذا الزواج ..

على ان النقاش الذي أثبته المؤلف في هذا الفصل ، لما يسوغ ، لو أن الجديد فيه ، تقعيد قاعدة جديدة ، أو الاتيان بنظرية أهملها الفقه الاسلامي ، الذي نص على ان العقم ، من مبيحات التعدد ، بشرطي القدرة والعدل اللذين ارتبط بهما بناء الحياة الزوجية منذ ان كانت هذه الحياة ، مبنية على أسس سليمة ، مرتكزة على دعائم الاسلام ..

يقول الاستاذ السباعي في نظرية اخرى لهذا التعدد :

ـ « بقاء النوع متخذ منذ الازل طريقه ، ولن يعيقه عقم في امراة بين النساء . بل اننا لنرى اليوم سكان المعمور في خوف من تزايد النوع البشري » الا ان كان الدافع لهذا الزواج الثاني ، الحرص على ممارسة الابوة ! كما قال المؤلف دفاعا عن هذه النظرية التي لا تسوغ الا بهذه التعلات !!

وانتقال المؤلف من نظرية الى نظرية ، ومن حكم الى حكم ، امر مستحسن بالدارس ، يطلعه على كثير من هذه الاحكام .. « فلطالما رزحت المراة في الماضي ، تحت سيطرة الرجل ، فطغى وأوسعها ظلما ومهانة ! ولقد آن لهذا السيف ، سيف ديموقليس ، ان ينحى عنها جانبا في هذا الزمن الذي نعيش فيه » ..

ثم يمضي الاستاذ السباعي في اصدار احكامه ، فيقول رأيه في القصة ، وان كنت أخالفه في هذا الحكم ، واقف واياه على طرفي نقيض ، ذلك ان الكاتب مطالب بأن يضع معانيه كلها على بساط البحث ، فلا يختزن شيئا في نفسه ، ولا يعمي على قارئه دقيقة من دقائقه ، حتى يكون القارىء مشاركا له في عمله ، مطلعا على مكنونات نفسه ، لا تغيب عنه شاردة من شوارده ، ان هو حاول المناقشة ، او تصدى له بالنقد ، لكن المؤلف يقصر هذا على القارىء الواعي الذي يعني بالكتابة ، لا هذا الذي يطالع للتثقيف ، او يقرأ للافادة :

ـ « ان قارىء القصة الواعي ، ولا سيما اذا كان واحدا ممن يعنون بكتابتها ، مطالب بأن يضع يده على معانيها الدانية ! ، فضلا عن مغازيها البعيدة ، تلك التي لا يستطيع ان ينفذ اليها عامة القراء » ..

ولقد اعجبني في الاستاذ السباعي عدة وقفات في روايته ، تتسم كلها بالدراسة الواعية ، والعرض الاخاذ ، وان كانت قد تناولها بعض الباحثين ، حتى اصبحت ان لم تعرض عرضا جديدا فقدت أهميتها بالنسبة للمطالعات الكثيرة ، التي غصت بالنظريات ، وامتلأت بهذه التوجيهات ..

يقول السباعي : « ان الاديب يكتسب ، من خلال مطالعاته ، خبرة في تخير الالفاظ ، وتبين اوجه استعمالها ... كما تتكشف له ، في اطلاعه على الروايات العالمية ، اسرار الفن الروائي : من ايجاز في التعبير حيث ينبغي الايجاز ، وامعان في الوصف حيث يقتضي الامر ذلك ... وكل اديب يقرأ ، يحصل هذه المكتسبات ويلقيها في بحر لا شعوره ، لتظل هناك ، هاجعة الى يوم ياخذ في الكتابة ، في التاليف ، فاذا هي تستيقظ من تلقائها دون ما حاجة الى استدعاء ، لتقوم بتنظيم عملية الخلق الفني » ..

ويفرق المؤلف بين الواقع والواقعية فيقول :

« الواقع : هو تلك المادة الخام التي تشهدها اعيننا في البيت والحديقة والمدرسة ونراها مرمية على رصيف الشارع ! واما الواقعية فهي اخذ هذه المادة الغفل وتكييفها بالتعديل والتبديل حسب الضرورة الفنية ، هذه الضرورة التي تطغى احيانا على معالم المادة ، فاذا هي شيء آخر جديد ، من اهم مميزاته انه منطقي ومبرر وسائغ » ..

ويمضي الاستاذ فاضل السباعي في علاجات لمجتمعه ، بعضها مما يشترك معه فيه كثير من الاوطان وبعضها الاخر ، يقتصر على الوطن السوري ، لا فكاك له منه ، بحكم الوضع ، او بحكم القلم الذي تناول

هذه الادواء ، ووصف لها هذه العلاجات ..

بيد ان المؤلف يحس كلما اوغل في مسالك القصة ، انه يبعد عن المرمى البعيد الذي من أجله ، كتب هذه الصفحات الكثيرة ، فيرجع الى الانتظام في سلك المعاني العريضة التي يتشارك فيها كل الادباء ، ويتنازعها جل الباحثين ..

والواقع ان الوقوف كان أحلى بالمؤلف من المضي في هذه المحاورات ، وان عد هذا ملاحظة جانبية ، وعددتها انا لفتة فكر ، أراد أن يدل بها المؤلف على علم واطلاع ..

يقول السباعي : « ... ان على الراغب في اقتحام ميدان القصة ، ان يكون ذا خبرة بالحياة ، فالقصة « شريحة » مقدودة من الحياة .. فاما الرواية فانها تحتاج الى « مستودع » زاخر بالخبرات والتجارب ، لان الرواية نهر حياة ، انها اشبه بنهر طويل يلم بالقمم والمنعطفات والسهول ، انها تتطلب معرفة واعية ومزيدا من الثقافة العملية ، فعند كل قمة ومنعطف ، وحتى في السهل المنبسط ، تطل مشكلة من المشكلات ، أو قضية من القضايا الانسانية ، تنشد حلا ، او تتوق الى معالجة ، ترهص بالحل ... »

ومهما يكن من أمر « رياح كانون » التي اراد لها مؤلفها الاستاذ فاضل السباعي ، ان تثير من الزوابع والاعاصير ، بحكم هذه القضايا التي حملتها ، الا انني أطمئنه من عدم هبوب هذه الرياح ، وزمجرة تلك الاعاصير ، واشد على يده في توفيقه ، وان كنت قد أحببت ان تخرج هذه القصة عن نطاق بلده في الشخوص والاجواء ، ولكن أنى له وقد خص سورية وحدها بجل هذه العلاجات ... !!

القاهرة **ابو طالب زيان**

•

تطور الصحافة العربية في مصر

تاليف انور الجندي — ٤٠٠ صفحة — حجم كبير — منشورات « دار المعرفة » بمصر

نوافق الاستاذ انور الجندي في أنه « من الضروري ان يكتب الادب العربي من جديد على نحو موحد تدرس فيه الظواهر المختلفة التي مرت بالوطن العربي في ضوء : وحدة الفكر والضمير والشعور والذوق » لان الوحدة العربية في الفكر متاصلة منذ امد طويل ، وتتضح مظاهرها في أنتاجهم الفكري على اختلاف أنواعه ، وكانت الصحافة هي المرآة التي ينعكس عليها هذا الانتاج الفكري للمفكرين العرب .. بل هي الوعاء الذي احتفظ بهذا الانتاج وسوف يحتفظ به في المستقبل البعيد . ومن ثم نبعت أهمية الصحافة في دراسة الواقع الاجتماعي العربي بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .. وغيرها .

ولهذا فقد اطلق الاستاذ « انور الجندي » على كتابه « تطور الصحافة العربية في مصر » عبارة مميزة وصادقة وهي انه « اطار لملامح المجتمع وصورة العصر » ، ويعتبر هذا الكتاب تعبيرا عن الصحافة الاجتماعية في مصر . وهو التوأم الثاني لكتاب « الصحافة السياسية » الذي أصدره الاستاذ الجندي قبل ذلك . وهو أيضا حلقة من حلقات الدراسة الموسوعية التي يعدها الاستاذ الجندي عن تطور الصحافة العربية واثرها في الادب العربي المعاصر .

وفي « تصدير » الكتاب يتحدث الاستاذ الجندي عن موسوعته الكبيرة في دراسة الصحافة العربية فيبين ان الفكرة اساسا هي « القضاء على النظرة الاقليمية الضيقة » التي كانت سائدة في دراساتنا عن الادب العربي .. وواضح ان هذا العمل الادبي عمل ضخم وشاق آثر الاستاذ الجندي أن يقوم به في صمت وبعد عن الدعاية لانه من الذين يؤثرون الاعمال الجادة التي تعطي عطاءها باستمرار وهي الاعمال التي يكتب لها البقاء في دنيا الكلمة وعلى مر الاجيال .

يقول الاستاذ الجندي « وكان من الضروري ان يردد هذا العمل « كاتب » لا يتطلع الى الثمرة السريعة ولا الجزاء المادي ، فيكتب دراسة على مستوى الامة العربية في فترة تبلغ حوالي سبعين عاما ، وهي الفترة التي واجهت فيها الغزو الاستعماري والاحتلال » ويستمر الاستاذ الجندي في حديث عن النفس قائلا « ولست أذكر مدى الجهد الذي بذلته والذي اضطرني الى اتخاذ « نظارة » طبية ، وكيف امضيت أكثر من ثلاثة اعوام مقيما اقامة تامة في مكتبة القلعة بالقاهرة بين الاضابير القديمة من الصحف والدوريات ، ولكني اذكر انني لا أعد هذا العمل شيئا كبيرا او عظيما ، وانما — اعده مخلصا — عملا تمهيديا لعمل أكبر منه واكثر شمولا وتحقيقا ، ومع ذلك فان عملي بالنسبة لهذه الدراسة لم ينته بعد ، فقد تولدت عشرات الموضوعات والدراسات الفرعية التي تحتاج الى مزيد من العمل . ومع هذا الجهد الذي بذلت ، وقد طبع اغلب هذه الاجزاء على حسابي الخاص ومن رزق اولادي ، فان قليلين جدا هم اولئك الذين اولوا « الموسوعة » بالنظرة الفاحصة والنقد البناء او القوا الضوء على بعض اجزائها ، ولم يكن مطمعي منهذا تطلعا الى شيء ما ، سوى الرغبة في الانتفاع بآراء الباحثين ووجهات النظر الاخرى التي توسع امامي افاق البحث » .

وفي حديث النفس هذا عدة قضايا لا يمكن ان نمر عليها دون ان نشير اليها ونرصد القضايا الايجابية والاخرى السلبية .. فالكاتب قام بمجهود فردي يستحق ان نهنئه عليه لان العمل الذي قام به عمل ضخم ويحتاج الى مجهود جماعي .. واذا سلمنا بفشل الجهود الجماعية حتى الان ، فلا أقل من ان نشيد بجهد فردي مخلص كان همه الاول ان يجلو الصورة التي خفيت علينا في ميدان الفكر العربي منذ سبعين سنة وحتى الان . ان العمل الموسوعي يحتاج الى ايد مخلصة تضع الحقيقة في حساباتها باستمرار ، ويؤيد هذه الايدي تعاون مادي تبذله الهيئات والمؤسسات التي ترعى شئون الفكر والثقافة في وطننا العربي . أليس مؤلما ان يضطر كاتب لاقتطاع رزقه ورزق اولاده في سبيل اخراج انتاجه الفكري ؟ أليس من الافضل اخراج الكتب الجادة ومساعدة أصحابها بدلا من اخراج الكتب التافهة التي تملا المخازن وتتكدس فيها ثم تباع في النهاية « دشتا » للتجار وبائعي الكتب ؟ انه مجرد تساؤل ينتظر عملا ايجابيا يحل هذه القضية ، ويشجع المفكرين والادباء على الانتاج الجاد الدءوب ، واعتقد ان هذا العمل الايجابي ممكن وليس بمعضلة المعضلات ! .

والكاتب الجاد ينتظر دائما اشادة بعمله او حتى مجرد الاشارة اليه، فنحن بشر تسرنا الكلمة الطيبة الصادقة ، وتدفعنا في دربنا الى نهايته ، وتجعل المرور فيه سهلا مهما كانت العقبات .. وايضا فان الصمت عن اعمالنا او تجاهلها يولد فينا نوعا من الحنق والحسرة قد يكون لهما أثر سيء في حياتنا العامة وحياة فكرنا الخاصة ! وانني لاتعجب حين يذهب بعضنا الى مسرح ما ويشاهد مسرحية ثم يجلس ليكتب عنها مقالا مطولا يستغرق مساحة كبيرة من كبريات صحفنا السيارة بينما لا يكلف نفسه عناء قراءة كتاب جيد ويكتب عنه دراسة تتميز بالصدق الفني والحكم الموضوعي ! وكذلك الحال لدى بعض نقادنا او قل اكثر نقادنا — لان هذه هي الحقيقة — حين يصرون على الكتابة عن كاتب معين دون غيره من الكتاب .. يكتبون عن كل ما يصدره هذا الكاتب دون اشارة الى الاخرين الذين يؤلفون وينتجون في صمت . ان هذه المواقف التي تعتمد على السطحية والشخصية لها اثرها السيء في حياتنا الادبية ويمكننا من غير شك ان نغير هذه المواقف بما يضفي حياتنا الادبية ويشيع فيها الخضرة والازدهار .

اعود بعد هذا الى « تطور الصحافة العربية في مصر » فأجد هذا

الكتاب ينقسم الى قسمين كبيرين القسم الاول عن تطور الصحافة العربية الى اوائل الحرب العالمية الاولى ، والقسم الثاني من الحرب العالمية الاولى الى الحرب العالمية الثانية .. وفي القسم الاول خمسة أبواب .. الباب الاول بعنوان « صحف واقلام وصراع أفكار » ويستعرض فيه الصحافة قبل الاحتلال الانجليزي وبعده ويتحدث فيه عن الصحف ورجال الصحافة والمفكرين المشهورين خاصة جمال الدين الافغاني وصحافته . ويركز الكاتب على صحافة الرأي وتطورها . والباب الثاني « دخائل الصحافة » وفي الباب الثالث يتحدث عن معارك ومساجلات الصحف وفي الباب الرابع حديث عن الصحافة كاطار لصورة العصر والمجتمع من الاحتلال الى أوائل الحرب العالمية الاولى مع حديث عن محاكمات الصحافة والصحفيين واوضح محاكمة هنا هي محاكمة « عبدالعزيز جاويش » و « ذكرى دنشواي » اما الباب الخامس فيتناول طرائف الصحافة آنئذ كالامضاءات المستعارة والمواقف الحرجة في عالم الصحافة والصحفيين .

اما القسم الثاني فيشمل خمسة أبواب ايضا تبدأ من الباب السادس حتى الباب العاشر ، ويتناول فيه تطور الصحافة في الأسلوب والمضمون فيما بين الحربين العالميتين . ويبدأ الباب السادس بمدخل تاريخي للفترة فيه تحليل جيد وتفسير واع للاحداث والظروف ، ثم حديث عن الصحافة في ثورة ١٩١٩ وكنت اتمنى ان يطول هذا الفصل المعقود لثورة ١٩١٩ في صحافتنا .. فهي فترة هامة في تاريخنا حفلت بالاحداث والملابسات ، وكان يجب ان تنال قسطا كبيرا من اهتمام الكاتب كي تتضح الصورة أمام جيلنا المعاصر ، وان كنت أعتقد في الوقت نفسه ان هذا الموضوع يحتاج الى كتاب باكمله ليمكن رسم صورة واضحة الملامح والخطوط لثورة ١٩١٩ . ويتحدث كاتبنا في هذا الفصل ايضا عن رؤساء تحرير الصحف حينئذ امثال داود بركات . خليل ثابت . أمين الرافعي . عبد القادر حمزة . حسين هيكل ... الخ .

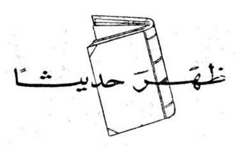
وفي الباب السابع يتحدث عن دخائل الصحافة في مرحلة ما بين الحربين ويوضح أثر الاحتلال في الادب والصحافة ثم حديث عن صناعة الاخبار وأثر اللبنانيين في الصحافة ومحاكمات الصحف .. والاخطاء المطبعية . اما الباب الثامن فيتحدث عن تطور الصحافة الاسبوعية بما فيها صحافة النقد السياسي الساخر كروز اليوسف والكشكول .. ويشير اشارة موجزة الى الكاريكاتور والصحف الهزلية ، مع حديث أكثر ايجازا عن صحافة الادب والثقافة .. وان كان المؤلف أحالنا الى كتابه « النثر العربي المعاصر » . والباب التاسع مقصور على الكتاب الصاحفين أي الذين يكتبون المقالات للصحف فقط ولا يتدخلون في صميم العمل الصحفي ، ويتضمن الباب العاشر قضايا وملامح شغلت المجتمع المصري آنئذ وميزته مثل قضية تحرير المرأة وانشاء بنك مصر .. والاغاني الشعبية والطرق الصوفية ... ألخ .

ولقد تأثرت جدا بتلك الرسالة التي كتبها مصطفى كامل لمدام جولييت آدم وأورد المؤلف بعضا منها في الفصل المعقود للحديث عن تلك الكاتبة الفرنسية الممتازة ، وتمنيت لو عرض المؤلف رسائل من مصطفى كامل وجولييت آدم كاملة .. فهي تراث رائع يمثل مرحلة من مراحل الوطنية لقائدها في ذلك الزمن .. اعني مصطفى كامل .

ولي ملاحظة على الكتاب وهي ملاحظة شكلية تختص بالاخطاء المطبعية . فالكتاب مليء بالاخطاء المطبعية الكثيرة التي تدل على اهمال واضح . واعتقد ان عملا ضخما مثل هذه الموسوعة يجب ان يراعى الاهتمام بشكله الخارجي .

أخيرا .. أتمنى لاستاذنا أنور الجندي السير في هذا الدرب الجاد الى منتهاه حتى تصبح الصورة الادبية عن عصرنا الحديث أكثر جلاء ووضوحا .

دمنهور ـ مصر حلمي محمد القاعود



- امارة بهدينان العباسية ـ تأليف محفوظ العباسي ـ تقديم الدكتور محمد صديق الجليلي وسعيد الديوهجي ويوسف يعقوب مسكوني ـ ٢٥٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الجمهورية بالموصل .
- اجراس اليوم الثالث ـ مجموعة شعرية ـ اديب صعب ـ مصمم الغلاف وهيب بتديني ـ ٩٦ صفحة ـ مطبعة النجوي ببيروت .
- رندة ـ مجموعة شعرية ـ ميخائيل ابو عقدة ـ ١٨٤ صفحة ـ مطبعة الثبات بدمشق .
- الكعديات ـ ديوان شعر ـ للشاعر المهجري جورج كعدي ـ تقديم كعدي كعدي ـ الجزء الثاني ـ ٢٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة فاندوم ببيروت .
- بدءا من حزيران ـ مجموعةشعرية ـ خالد محييالدين البرادعي ـ تقديم شاكر مصطفى ـ ١٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطابع مؤسسة فهد المرزوق الصحفية بالكويت .
- مي زيادة في حياتها وآثارها ـ تاليف وداد سكاكيني ـ ٢٥٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار المعارف بمصر القاهرة .
- اغاني المزرعة ـ ديوان شعر ـ الدكتور سليمان داود عميد جامعة الادب العربي في اميركا الشمالية وكندا ـ تقديم شاكر الدبس ـ بسان باولو البرازيل ـ الجزء الاول ـ ٤٦٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الريحاني للطباعةوالنشر ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)
- جمال المراة عند العرب ـ تاليف الدكتور صلاح الدين المنجد ـ طبعة ثانية موسعة ـ ١٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ مطابع الامان بدرعون لبنان .
- المختار من المخطوطات العربية في الاستانة ـ نشرها وعلق عايها الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .
- مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ـ تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ٣٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ مطابع الامان بدرعون لبنان .
- فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الكونفرس واشنطن ـ وضعه الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ مطابع منيمنة الحديثة ببيروت .
- بحوث فلسفية ـ تاليف ندره اليازجي ـ ٢٠٨ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- فخر الدين ـ مسرحية في خمسة فصول ـ تاليف صلاح مطر ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- صحراء الحب ـ رواية ـ تاليف فرنسوا مورياك ـ ترجمة ناديا شعبان ـ ٢٢٤ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .
- تاريخ الحضارات العام ـ الجزء السادس ـ القرن التاسع عشر ـ تأليف روبير شنيرب ـ ترجمة يوسف اسعد داغر وفريد م. داغر ـ ٧٢٠ صفحة ـ مع لوحات تاريخية ووثائق ـ حجم موسوعي ـ مجلد بقماش ـ منشوراتعويدات ببيروت ـ مطابع منشوراتعويدات ببيروت